www.rewity.com

روايات احلام

كذبة العمر

www.rewity.com

روايات احلام

كذبة العمر

كانت فران في الرابعة عشر من عمرها عندما أحبت. وفي بداية يقظة مشاعرها، أخذت تجرب تأثيرها في غرانت ميسيير...

وبسبب هيامها الساحق به ترك غرانت مرغماً مزرعته وجياده التي يحب لكي يهرب منها. كان في الثامنة والعشرين وواعياً جداً للخطر الذي تمثله له. ثم تزوج بعد فترة قصيرة، وتحطم قلبها الفتي، فأمضت لياليها تدعو الله أن تموت...

فما الذي أعاده الليلة؟ ولماذا يريد الآن أن يتزوجها؟... وشعرت فران بشبح يفصل بينهما... إنها زوجته الأولى جوليا... المرأة التي أحبها وشاركته حياته ست سنوات... المرأة التي ما زال يحبها، ولا يريد فران إلا لأنها شديدة الشبه بجوليا... وهذا هاجس لن تستطيع فران العيش معه.

لبنان	٢٠٠٠ل.ل.	الإمارات	٤ د.	ليبيا	٤ د.
سوريا	٧٥ل.س.	قطر	٦ر.	المغرب	١٥ د.
اليمن	الأردن	١ د.	البحرين	٦٠٠ف.	تونس
٢ د.	السودان	الكويت	٥٠٠ ف.	السعودية	١٠ ر.
عمان	٦٠٠ ب.	العراق			

١ ـ حب مات صغيراً

أدارت فران نظراتها في أنحاء القاعة المزدحمة وتمنت لو يفتح أحد النافذة قبل أن تختنق. كان الجوّ خانقاً مثقلاً بدخان السكائر وأصوات المجتمعين الخشنة الناقبة.

أخذت من زاويتها تنظر إليهم يتدافعون بالمرافق بعنف، صارخين بكلام مثل: «آسف يا عزيزي» يقولها الواحد منهم متجهماً وهو يتقدم شاقاً طريقه نحو مجموعة أخرى.

رباه، ما الذي تفعله هنا على كل حال؟ إنها دوماً تكره هذا النوع من الحفلات بجوها المليء بالحيوية الزائفة. لا أحد يستمع إلى الآخر ودوماً مشغولون جداً بالتظاهر بما ليس فيهم، ويجيلون أنظارهم حولهم كيلا يكون هناك شخص أكثر أهمية قد فاتتهم رؤيته ولا بد لهم من اجتذاب انتباهه إليهم في حالة وجود إمكانية تساعدهم على الصعود درجة على سلم مهنتهم.

لكنها اعترفت لنفسها ساخرة بأن وضعها لا يسمح لها بالانتقاد وهي الموجودة هنا لنفس الغرض، ما عدا أن ما دفعها إلى الحضور هو الخوف وحده من أن يغسل سيث يديه منها نهائياً، فقد وجد العثور على عمل لها صعباً للغاية لعدم تعاونها معه.

لقد قال لها بخشونة: «إذهبي إلى هناك وإلا...» وبالرغم من صداقتهما فقد أدركت أنه يعني ما يقول.

وهكذا لبست حذاءها الأبيض الطويل واستعارت سترة ساشا الفرو البيضاء الجديدة، مقسمة لها أن تصونها من حروق السكائر.

كاد الحذاء يقتلها، أما سترة الفرو فقد كان الوبر يتناثر منها بشكل مخيف فيلتصق على رقبتها المبللة بالعرق ما أخذ يهيج جلدها ويدفعها إلى الحك باستمرار، ولم تستطع أن تخلع السترة لأن الوبر أصبح ملتصقاً على بلوزتها السوداء. حاولت أن تنفضه ولكن جهودها لم ينتج عنها سوى زيادة الوبر المتناثر، وكان سيث قد تركها ليطوف في أنحاء القاعة ناشداً الاحتكاك بالآخرين.

أخذت تتساءل بأسى عما منعها من الذهاب إلى بيتها لتجنيبه هذا الإزعاج... إلى بيتها الحقيقي وليس إلى تلك الشقة التي تشترك بالسكن فيها مع ساشا. العودة إلى الوادي حيث نشأت، فيمكنها العودة إلى وظيفتها في المكتبة حيث تعيش بسلام بين أناس كل اهتمامهم ينحصر في تأثير الجو على مواسمهم الزراعية. هناك لن يلاحظ أو يهتم أحد بأن فران لوكاس لم تنجح في العمل في الإعلانات.

ولكن أثناء الخمس سنوات الماضية، لا بد أن المكتبة تغيرت ككل شيء آخر. والسبب الذي منعها من العودة هو نفسه السبب الذي جعلها ترحل... إنه غرانت.

أدركت فران سبب أفكارها هذه وهو لمحها لمؤخرة رأس أسود الشعر في الغرفة الثانية. لم تدخل إلى هناك لترى الرجل جيداً كما اعتادت. وما أكثر ما كانت تشعر بانقلاب في معدتها وتراوح ما بين الأمل والخوف ما يلبث أن يتبدد عندما يلتفت الرأس فيبدو لرجل غريب بدلاً من ذلك الذي انطبع في ذاكرتها... ولكن لو كان غرانت، فهي...

ماذا ستفعل؟ ربما ستشيح بوجهها كما فعلت آخر مرة عندما تلاقت نظراتهما في ردهة المسرح. لقد عرفها على الفور رغم مرور سنوات على فراقهما وعدم توقعه هذا اللقاء في قلب لندن.

غرانت ميرسير! لا بد أنه هو، رغم أنها وجدت من الصعب

عليها تصديق ذلك وهي التي تعرفه منذ زمن بعيد. إنها لم تتصور قط أنها يوماً ما سترى اسمه على واجهة مسرح «ويست إند» بصفته الكاتب لمسرحية نالت استحسان النقاد. إنها لا تستطيع التفكير فيه إلا كما عرفته، بسيارته الرانج روفر الملطخة بالوحل وثلاثة كلاب في أثره.

ولكن تحول ملاك ومزارع إلى كاتب مسرحي ليس بأعجب من أن تتحول ابنة أخ حداد، بشعرها الفضي الأشعث، إلى فتاة إعلانات. الفرق بينهما طبعاً هو أن غرانت أصبح الآن مشهوراً. أخذت له في السنوات الأربع الماضية الصور وأجريت معه المقابلات وكتبت عنه الصحف ما جعله مألوفاً لكل شخص واسمه في كل منزل حتى في محيط فران التي كانت تفكر ساخرة بأن ذلك راجع إلى افتتان النساء به أكثر مما هو لموهبته الكتابية. حتى الفتيات اللاتي لا يذهبن مطلقاً إلى مسرحيات جادة، كن يسهرن إلى ساعة متأخرة لكي يشاهدنه في البرنامج الثقافي في التلفزيون. لم يكن عدم فهمهن لثلث ما يقوله مهماً بالنسبة إليهن فقد كن يراقبن البرنامج لافتتانهن بشكله الأسمر الوسيم وصوته الرائع.

رؤيته على الشاشة أحدثت في نفس فران شعوراً غريباً. كان الغريب هو ذلك الكاتب البادي الأناقة والتهذيب بينما جميع النسوة الأخريات لم يرين فيه ذلك الرجل القوي العضل والذي طالما رأته مغموراً بالعرق والغبار في مواسم الحصاد.

ولكن تلك الصورة له لم يكن يعرفها سوى القليل، فالباقون يرون فيه ذلك الرجل الشهير البادي أمامهم. ولكن بالمقارنة من ذا الذي سمع قط باسم فران لوكاس؟ حفنة قليلة لا أهمية لها.

حتى الأسابيع القليلة الماضية، استطاع سيث دوماً أن يجد لها من الأعمال ما يكفي لإعالتها، ولكن تلك المهنة المتألقة لم تتحقق

قط. كان فيها شيء مفقود، ربما خمود تألقها بشكل ما... وبدلاً من أن تظهر الكاميرا جمال عينيها الآسر، أظهرت فمها الواسع وأنفها غير الكامل الجمال.

ما ملأ سيث سخطاً هو أنها تكره استغلال الميزة الوحيدة التي تملكها. لقد أخبرها منذ البداية بأنها إذا رضيت بخلع بعض ملابسها، فسيعثر لها على العدد الذي تريده من الأعمال. وفي الأسبوع الماضي أذعنت لإصراره ورضيت بأن تؤخذ لها بعض الصور الفوتوغرافية.

أخذت تفكر بأنها في الحقيقة لم تكن تحب تلك الحياة. إنها لا تملك الصبر المطلوب الذي يجعلها تتحمل الجلوس أمام المصور ساعات من الضيق والسأم. لكن المشكلة هي أنها بلغت الثالثة والعشرين من عمرها دون أن تتعلم أية مهنة، ومن الصعب أن يجد أمثالها عملاً.

تحركت بضيق شاعرة بألم البطن يعاودها... أكثر من مرة أرادت أن تستشير الطبيب بهذا الشأن، ولكنه كان كوجع الأسنان، كلما رفعت سماعة التليفون، إما أن يختفي الوجع وإما أن تقول لها موظفة الاستقبال أن الطبيب من الانشغال بحيث لا يستطيع رؤيتها قبل عدة أيام.

لكن الألم هذه المرة جعلها تشعر بالغثيان، وإذا لم تستطع أن تخرج من هذه القاعة الخانقة الجوّ الآن، سرعان ما ستجد نفسها منهارة.

نظرت حولها فرأت سيث يشق طريقه نحوها مصطحباً معه رجلاً أنيقاً أحمر الشعر، نبهتها نظرات سيث إلى أن تكون رقيقة معه. تنهدت بعمق وهي تحدث نفسها بأن عليها أن تجعل ابتسامتها مشرقة موحية بأنها هنا لهذا الغرض فقط.

حاولت أن تهدئ من ملامح وجهها، وعندما وصلا إليها أخيراً

قال سيث بحرارة: «ها هي ذي».

كان شعر الرجل الخفيف ممشطاً إلى الأمام بعناية لإخفاء صلعه الأمامي، ولحيته لا تكاد تخفي بثرة صغيرة ذات رأس مائل إلى الخضرة، وجدت فران نفسها تحدق إليها شاعرة بالغثيان. لم تستطع أن تبتسم وتتحدث وتمزح مع هذا الرجل المقزز للنفس مهما جلب لها ذلك من أموال.

ومما كان يقوله سيث، فهمت بشكل مبهم أن العمل المعروض عليها هو الإعلان عن مجموعة جديدة من «الشامبو»، كان يمدح بسخاء شعرها الأشقر الفضي لكنها لم تكد تسمعه وهي تتأمل ملامح الرجل الآخر.

كانت قد رأت مراراً من قبل تلك النظرة التي أخذت تقيّمها بطريقة لا علاقة لها بصلاحيتها لهذا العمل. كانت تشعر بالتعب والغثيان من ذلك ومن كل الرجال الآخرين الذين يفترضون أنها في متناول اليد لمجرد معرفتهم بأنها تعمل في الإعلانات. لم تعرف ما هو العمل الآخر الذي يمكنها القيام به ولكن قرارها تكوّن فجأة.

استمر سيث في مزاولة طريقته في البيع. كان يرفع شعرها ليعرضه على الأنظار وإذا بالأرض تدور حولها، فقاطعته قائلة باستماتة: «آسفة يا سيث، فأنا مريضة وعليّ الخروج من هنا».

قطب جبينه ساخطاً ولكنها لم تهتم، فقد أصبح ألم بطنها عنيفاً وشعورها بالغثيان بالغاً. وشعرت بوجهها يتبلل بالعرق، بينما تحول عبوس سيث إلى اهتمام حاد.

أمسك بذراعها يقودها إلى الغرفة الأخرى التي كانت أقل احتشاداً بالناس، شاقاً طريقه بكتفه آمراً: «أفسحوا الطريق للسيدة، فليأتها أحد بكرسي».

جيء بكرسي أجلست فران عليه نصف مغمى عليها. حاول

سيث أن يجعلها تشرب شيئاً من الماء، لكنها دفعته عنها وهي تهتز ألماً بينما كانت تقاوم التقيؤ. كان وجهها الآن يلتهب وعيناها مغمضتين، وشعرت بيد على جبينها.

ثم قال صوت بإيجاز وسلطة: «أطلبوا سيارة إسعاف». عند سماعها له وسط أمواج الألم، أدركت أنها لا بد مصابة بالهلوسة. ففتحت عينيها لحظة قبل أن تعاودها النوبة.

ولكن اللمحة القصيرة تلك كانت كافية لتؤكد ما لم يستطع عقلها تصديقه. لم تكن مخيلتها أو تمنياتها ما أثار ذكرياتها هذه المرة، فقد أحست بيده تمسك بيدها فتشبثت بها بضعف وهي تسمع الصوت الذي تذكره جيداً يقول بهدوء: «صبراً يا فران فسأخرجك من هنا».

أومأت برأسها بينما أمر الجميع بالابتعاد، ومن جانبها الآخر، سألها سيث باستياء: «هل تعرفين هذا الرجل؟»

فهمست وهي تحاول مقاومة الإغماء: «نعم» ثم احتواها الظلام.

* * *

لم تتذكر شيئاً حتى أخذوا يساعدونها في الجلوس في السرير وهي تئن وتنتفض. أسندتها الممرضة إلى الوسائد وهي تبتسم لها بعطف مهني وتخفف عنها.

بعد ذلك بقليل، بدت ورود حمراء في زهرية على عتبة النافذة والممرضة تناول فران بطاقة كتب عليها: «لقد دمّرتها حقاً هذه المرة يا عزيزتي». لم يكن ثمة إمضاء، ولكن هذا لم يكن ضرورياً حتى ولو لم تكن تعرف خط سيث. فمنذ غيروا الضماد عن الجرح، أدركت ما يعنيه.

قالت لها الممرضة: «سيتلاشى الأثر، وبعد عام واحد لن تستطيعي رؤيته».

وهكذا خرج القرار من يدها كما أخذت فران تفكر باستسلام. حتى لو أرادت تغيير رأيها الآن فلن يمكنها ذلك، حتى سيث سيجد صعوبة في العثور على معلن لن يعترض على وجود أثر حديث لجرح عملية زائدة دودية.

جاءت ساشا لزيارتها في المساء لافتة الأنظار وهي تتمايل في القسم بقوامها الرائع وشعرها الأسود المكوّم فوق رأسها.

حيتها فران بقولها: «أرجو أن تكون سترة الفرو وصلت إليك سالمة، وأنصحك أن ترشيها بما يثبّت وبرها قبل أن تلبسيها».

فقالت ساشا عابسة: «كان عليّ أن أتعلم مما مضى أن كل «اللقطات» التي أشتريها رخيصة، أكتشف فيما بعد أنها كارثة».

وألقت نفسها برشاقة على الكرسي ثم أخذت تتأمل فران بعطف: «يبدو عليك الضعف إلى حد مخيف، كم ذهلت وذلك الرجل بالذات يخبرني بأنهم حملوك وسط الأغاني والموسيقى والأنوار الزرقاء».

وتابعت ضاحكة: «لقد أفسدت الحفلة».

فالتفتت إليها مجفلة: «إنه أمر خارج عن إرادتي».

ثم استندت إلى الوسائد بحذر وأضافت: «من هو الرجل الذي أخبرك؟»

فقالت ساشا وعيناها تتألقان اهتماماً: «إنه غرانت مبسيير، لماذا لم تخبريني عندما تعرفت إلى هذا الكاتب الشهير؟»

فأجابت بهدوء: «إنها ليست معرفة جديدة، فأنا لم أتحدث إليه منذ تسع سنوات. يمكنني أن أضجرك بذكرياتي عندما كنت في الرابعة عشرة إذا شئت».

كانت ساشا أخلص صديقاتها ومع ذلك لم تشأ أن تخبرها ما يفعل بها مجرد ذكر اسم غرانت. عندما رفعت إليها بصرها أخيراً، رأت ساشا تنظر إليها بفضول وهي تقول: «كان بالغ الذعر بالنسبة

إلى رجل لم يرك منذ تسع سنوات. قال إنه سيتصل بي فيما بعد ليسألني عنك. ما زال غير مسموح لك استقبال الزوار، ولكنهم سمحوا لي بالدخول لدقيقة واحدة لأنني أحضرت لك فرشاة أسنانك وما شابه».

ـ حسناً، لا تحاولي أن تؤلفي من هذا حكاية، فهو متزوج ومخلص لزوجته.

فقالت ساشا متفجعة: «آه، ولكن هذا شيء طبيعي بالنسبة إليه».

ورأت الممرضة قادمة فهبت واقفة: «يبدو أنهم سيطردونني... لا تهتمي بأية تفاهات كإيجار البيت وغيره أثناء وجودك هنا يا حبيبتي. كلي فقط طعام المستشفى الشهي وتماثلي للشفاء، وسأراك غداً».

ابتسمت لها فران شاكرة بينما توارت ساشا مخلفة وراءها موجة من العطر الثمين.

أغمضت فران عينيها وهي تشم هذا المزيج السيء من العطر وروائح المستشفى المنتشرة، وما لبثت أن استغرقت في نوم عميق لتستيقظ على قرقعة عربة العشاء. وبعد ذلك بقيت مستيقظة إلى منتصف الليل، ولكنها لم تعرف إن كان السبب في ذلك هو ذكرياتها أم تأثير العملية.

غرانت.. لم تستطع أن تتذكر يوماً لم تعرفه فيه! فمنذ صباها الباكر وهو موجود هناك، في ذلك البيت المبني من الحجر الرملي على قمة التل القائم في الناحية الأخرى من الوادي. كانت فران تعيش مع عمها وزوجته في المنزل الصغير القائم بجانب ورشة الحدادة، وربما بداية رؤيتها له كانت هناك حيث اعتادت أن تمضي الساعات تتفرج على عمها وهو يشكّل حدوة الحصان الحمراء ثم يقيسها على حافر الحصان.

تذكرت شكل غرانت حتى في ذلك العمر، متكئاً على الجدار داساً يديه في جيبي بنطلونه يتحدث مع عمها عن الخيل. كان في العشرين بينما هي في السادسة، تراه حينذاك بطلاً. تذكرت ابتساماته لها حين أخذ عمها يعلمها ركوب الخيل. وكيف كادت تنفجر من الزهو عندما أخذ يعطيها النصائح ويساعدها على ركوب الحصان الصغير الحجم. كانت طبيعية تماماً لا تشعر معه بالخجل في تلك الأيام، ولكنها في طور المراهقة أخذت تحمر خجلاً وتتلعثم ويتملكها الاضطراب عندما يتكلم معها.

لم تعرف سبب تأثيره ذاك عليها، ولكنها أخذت تراقبه... فإذا رأت سيارته «الرانج روفر» في القرية، اتخذت لنفسها موضعاً تستطيع منه النظر إليه دون أن يراها أحد. وفي الأيام التي كان يغيب فيها عن البيت، تظلم نفسها وتشعر بالفراغ. اعتاد أحياناً أن يغيب أسابيع، ولكنها عندما أصبحت في الخامسة عشرة تقريباً، مكث في البيت طوال الصيف تقريباً. وتبدل خجلها عند رؤيته إلى إثارة وابتهاج... وفي بداية يقظة المشاعر تلك، حين تبدأ الفتيات في تجربة تأثيرهن على الفتيان في المدرسة، أخذت هي تجرب ذلك على غرانت.

كانت حتى في ذلك الحين طويلة جداً، ومكتملة الجسم تقريباً ما جعلها تبدو أكبر سناً بكثير.

أصبحت لها شعبية كبرى بين الفتيان في المدرسة، ولكنها رفضت كل دعواتهم. وبينما كانت زميلاتها في الصف يحلمن بنجوم السينما، كانت أحلامها تنحصر في غرانت... أحلام يقظة تتصور فيها نفسها تسقط عن ظهر حصانها، فيحملها غرانت إلى بيته فاقدة الوعي، ثم يقف ممسكاً بيدها يناشدها بصوت معذب أن لا تموت.

ولكن تخيلاتها تلك تغيرت مع قدوم الصيف، فأصبحت مزيجاً من البراءة والمشاعر. وفي أيام تموز الحارة، لم تعد تلك الهالة

القدسية تحيط بغرانت، ولم يعد بعيد المنال بالنسبة إليها، لقد أصبح فجأة رجلاً من لحم ودم. أصبحت تنظر إليه وتراقبه بعينين مختلفتين... كتفاه العريضتان، وعضلاته القوية أخذتا تتركان على أحاسيسها تأثيرات بالغة. وفي سريرها أخذت تخترع الطرق التي تجعله ينتبه إليها، وساد الأرق لياليها متقلبة على جمر الأشواق وخوف انكشاف سرها للآخرين، بما يصحب ذلك من خزي يتملكها.

ولكن لم يشتبه في ذلك أحد، وعند بداية عطلة الصيف، ابتدأت بالملاحقة. علمت بأن غرانت يأخذ كلابه إلى التل خلف المنزل معظم الأماسي. وهكذا، بعد تناول الشاي، ابتدأت تأخذ كلبها فيعبران النهر إلى حيث تتسلق معه الناحية الأخرى من التل. وتخلصت من ثوبها المدرسي، وأخذت ترتدي شورت لتظهر ساقيها الرشيقتين، وقميصاً دون أكمام تختاره عمداً أحياناً من ثيابها القديمة. كان الشورت الذي فرضت زوجة عمها عليها ارتداءه، محتشم الطول، ولكنها ما أن تبتعد عن البيت حتى تقصره قدر إمكانها، ومن ثم تتابع تسلقها.

أخذ صعودها ذاك يؤلم ساقيها، فتلهث وكذلك موفين كلبها كلما وصلا إلى القمة، ولكنها ما إن ترى غرانت حتى تنسى كل شيء، فتلوّح له بيدها وتناديه، وكان طبيعياً تماماً أن يستدير ثم يسير بجانبها طوال الوقت، ليجلسا على صخرة عند القمة، بينما موفين وكلابه تقوم بالبحث عن الأرانب، وتجلس هي بجانبه مقتربة منه قدر ما تسمح به جرأتها، ولكنها من الحكمة بحيث تعلم، بالرغم من أحلامها، أن غرانت إذا تكهن بما كانت تفعله، فإن مقابلاتهما ستتوقف.

في منتصف شهر آب، بلغ بها الحب له حداً أخذ يؤرقها الليالي

وكان أول ما تفكر فيه عندما تستيقظ يومياً. أينما ذهبت كانت صورته في خيالها بوجهه الذي صبغته الشمس، معذبة نفسها بتصور عينيه الكثيفتي الأهداب تنظران في عينيها بنفس الحب واللهفة اللتين تكنهما له.

أصبح التفكير فيه هاجسها الأوحد، فالأيام بدت لها طويلة حتى تراه مرة أخرى. وعندما ابتدأ يدعوها إلى دخول بيته لتناول زجاجة كوكا كولا أثناء نزولهما عن التل، أوشكت أن يغمى عليها من الفرح. كانت أمه قد تزوجت بعد وفاة أبيه ورحلت إلى خارج البلاد ولكن مدبرة المنزل موجودة هناك على الدوام، كما كان هو حريصاً على أن لا يدع يده تلمس يدها ولو عفوياً.

أدركت أنه يتعمّد ذلك ما جعلها تشعر بخيبة أمل مرة إلى أن حدث مرة أن رفعت إليه بصرها فرأته يتأملها بإمعان. تغيرت ملامحه على الفور، ولكنها شعرت بقلبها يقفز ابتهاجاً.

ولكنه بعد ذلك توقف عن دعوتها إلى دخول منزله. بقيا يتقابلان مع كلابهما في الغابات، ولكن كان ثمة شيء مختلف... فقد أخذ ينعزل عنها، وتملكها القلق والحنين، وازداد بؤسها عندما اقتربت نهاية العطلة الصيفية. سرعان ما تعود إلى المدرسة وارتداء الثوب المدرسي، كما أن النهار سيقصر ما لن يدع مجالاً لها للذهاب بعد تناول الشاي إلى هذه النزهة.

بقي ستة أيام، ثم خمسة... وتسارع الوقت الثمين بالمرور. وعندما لم يبق سوى أربعة أيام، جلست بجانبه على العشب وأخذت تراقبه من تحت أهدابها، متمنية لو يلتفت إليها فتجعله يأخذها بين أحضانه.

كانت من الاستغراق في التفكير بحيث أنها عندما شعرت بذراع غرانت حولها أجفلت ظانة أنها نجحت، ولكنه أمرها بصوت هادئ

«لا تتحركي» وإذا بها ترى أفعى سامة تنسل بصمت من بين الأعشاب متجهة نحوها.

ثم قال بنفس الصوت الهادئ: «إنها لا تؤذي أبداً طالما لا يزعجها أحد، إبقي هادئة فقط إلى أن تمرّ».

لم تكن فران خائفة حقاً، كانت هذه المنطقة حافلة بالأفاعي وكثيراً ما صادفتها أثناء نزهاتها، ولكن عن بعد. لم تستطع كبح رجفة بسيطة تملكتها عندما أخرجت الأفعى لسانها ثم انسابت ببطء مارة بساقها وهي تراقبها بعينيها، وشعرت بذراع غرانت تشتد حولها محذرة وهو يتابع الأفعى ببصره.

تغير ما تشعر به من توتر إثر تلك الحركة الخفيفة، وسرعان ما تسمّرت أحاسيسها على قوة قبضته على ذراعها. توقف قلبها عن الخفقان لحظة عاد بعدها إلى التسارع، وأدركت أنه يشعر بذلك من خلال نبضها.

شعرت كذلك أنه أدرك سبب ذلك الاندفاع المفاجئ في كيانها.

تصلب جسمه، وجمدا هما الاثنين دون حراك فترة غير معلومة، فقد أحست بتوتر عضلات ذراعه والرجفة الضئيلة في إصبعه.

تملكها سرور عنيف إذ أدركت أنها أثارته.. وأنه يتصرف كرجل. وعندما قال أخيراً: «لقد ذهبت» استرخت ذراعه حولها، وبينما كان يسحبها إذا بها تلتفت بسرعة فتصطدم يده بصدرها.

وسرعان ما أدركت أنها ارتكبت غلطة لا يمكن إصلاحها.

جمد في مكانه محدّقاً في أصابعه. احمرت وجنتاه رافعاً عينيه إلى وجهها ببطء، ثم أبعد يده بسرعة وكأنها لمست جمرة.

وفي اليوم التالي رحل، وهكذا أمضت فران شتاء بارداً موحشاً خالياً. وفي فصل الربيع أخبرتها زوجة عمها أنه تزوج، فشعرت

بقلبها الفتيّ يكاد يتحطم ألماً، وأمضت تلك الليلة تدعو إلى الله أن تموت.

* * *

٢ ـ أعدني إلى ذكرياتي

دخلت الممرضة بصمت بحذائها المطاطي، وسألتها بعطف: «أما زلت مستيقظة؟»

ـ نعم مع الأسف.

ـ يمكنك أن تتناولي حبة منومة أخرى إذا شئت.

أي شيء يبعدها عن التفكير في غرانت... فأومأت تقول: «نعم، من فضلك».

لكن النوم لم يأتها، فقد عاودتها الصور والذكريات، ولكن ليس عن غرانت هذه المرة بل عن جوليا.

كل من في القرية تملكه السرور لزواجه. ولكنه لم يحضر زوجته إلى القرية إلا بعد ثمانية عشر شهراً. وفي تلك الأثناء، كانت فران قد بلغت السابعة عشرة واشتغلت في المكتبة في المدينة القريبة. كان إحساسها بخيانته من العمق بحيث لم تعد قط إلى عبور النهر إلى الناحية الأخرى من الوادي، كما أنها لم تدخل قط ورشة عمها حتى لا ترى خيال غرانت متكئاً إلى الجدار كعادته دوماً.

كان تجنبها له سهلاً فظهوره في القرية أصبح نادراً الآن، وكأنما كان هو أيضاً يتجنبها. ولكن جوليا كانت أمراً آخراً... أخذت تتسوق من متجر القرية، وتزور كبار السن وتمنح جوائز في المدرسة الصغيرة. امرأة جميلة كما قالت عمتها، فهي من نوع النساء الذي يتمناه كل رجل. ومما يسر المرء أن يرى زوجين بهذا القدر من السعادة والحب لبعضهما البعض، كما أنها ابنة عميد في الجيش.

أومأت فران بصمت، بينما قال عمها إن ثمة شبهاً بينها وبين صغيرتهما فران في الهيئة: «إن لهما نفس لون البشرة والعينين وكذلك قسمات الوجه حتى ليظن الرائي أنهما أختان لو كانتا جنباً إلى جنب».

وافقته زوجته على ذلك، ولكنها قالت إن على فران أن تمضي وقتاً طويلاً قبل أن تصبح مثلها في السلوك.

أخذت فران تفكر بمرارة في أن جوليا هي امرأة مثالية كاملة في كل شيء، جميع أهل القرية يثنون عليها. وعندما ابتدأوا بالتخمينات عن موعد إنجابها الأطفال، أدركت أن عليها أن ترحل. إنها تحتمل بمصادفتها زوجة غرانت دائماً ما يكفي من العذاب، فكيف وهي تراها مع أولاده؟

عندما بلغت الثامنة عشرة ذهبت إلى لندن مع صديقتين لها، ولكن حتى ذلك لم يكن بعيداً كفاية. ما زالت تتذكر بوضوح مؤلم تلك اللحظة التي نظرت فيها عبر ردهة المسرح فرأت غرانت. لقد مضت خمس سنوات على تلك الغلطة المصيرية التي اقترفتها فوق التل، ولكن دون أن يتغير شيء، فمعدتها ما زالت تنقلب كلما رأته.

كان أكبر سناً وقد ارتسمت خطوط حول عينيه لم تكن موجودة قبلاً. ولكنه بدا أكثر وسامة من أي وقت مضى، وأكثر سمرة في بذلة السهرة، كما إنه أكثر نحولاً رغم أنه ما زال ضخم الجسم.

ميز أحدهما الآخر على الفور، فأخذا يحدقان في بعضهما البعض وقد التمعت عيناه، ثم ما لبث الجمود أن غطى وجهه والتفت إلى جوليا بقربه. جوليا الرائعة الجمال والأناقة بصفاء وجهها ورشاقتها، وقد كومت شعرها الأشقر على قمة رأسها وبان جمال قوامها في ثوب السهرة الأسود.

أخذت فران تراقبهما فرأته يضع ذراعه حول خصرها بحب،

أدركت بأنه على وشك أن يحدث جوليا عنها. ما الذي سيقوله؟ أنظري يا حبيبتي، تلك هي فران ابنة أخ الحداد في القرية!

اكتسحتها موجة غيرة من العنف بحيث منعتها من التنفس، فابتعدت قبل أن تدير جوليا عينيها الجميلتين الهادئتين إليها.

لم ترهما فران بعد ذلك، إلى تلك اللحظة التي سمعت فيها صوته ففتحت عينيها بنظرة خاطفة رأته فيها منحنياً فوقها.

نامت أخيراً لتستيقظ مكرهة عندما جاءت ممرضات النهار، وعندما جاء سيث بعد الظهر كانت متعبة يغالبها النعاس. سألها عن حالها وهو يجر كرسياً إلى جانب السرير جلس عليه صامتاً متجهم الوجه، إلى أن سألته باستياء عما إذا كان قد جاء ليرفع من معنوياتها حقاً.

قال وهو يتأرجح في كرسيه بعدم ارتياح: «حسناً، كان أسبوعاً متعباً، والآن تقول ليبي إنها حامل».

ولم تعرف فران ما عليها أن تقول.

قال وقد ازداد عبوسه: «إنها تقسم على أنها كانت تأخذ الحبة كل ليلة، ولا تدري كيف حدث الأمر. ولكنني أشك في ذلك».

ـ هل ستلغيان الآن مشروع الطلاق؟

نظر إليها لحظة دون جواب ثم ما لبث أن هز كتفيه: «أظن ذلك».

أخذ ينظر إلى الورود الحمراء في النافذة وقد استغرق في أفكاره. فقالت فران: «شكراً للورود! هل ستتخلى عني الآن يا سيث؟»

ـ إذا لم أستطع التخلي عنك من قبل يا عزيزتي، فلن أستطيع ذلك الآن بعد أن أصبح لديك أثر هذا الجرح في بطنك.

قالت موافقة: «هذا صحيح».

فقال بنعاسة واضحة: «واجهي الحقيقة، فالمشكلة هي أنك لم ترغبي هذا العمل قط... إننا، نحن الاثنين، نعلم أن لا جمال في هذه المهنة بالذات، فهي مملة. وجمالها فقط من المال الذي تحصلينه منها عندما تصلين إلى القمة، ولكنك لن تنجحي أبداً فيها».

فقالت مستسلمة: «أعلم هذا، ومعك حق. فقلبي لم يقبل قط بهذه المهنة. سأبحث عن عمل آخر أثناء وجودي هنا، لقد حاولت أنت هذا لأجلي يا سيث، وأنا شاكرة لك ذلك، ولكن ربما ما حدث كان للأصلح».

أومأ شاعراً بالارتياح لقولها هذا، ثم قال: «هل كانت لك صلة بذلك الكاتب الذي كان في الحفلة؟ غرانت مرسيير؟»

فتصلب جسمها: «كلا، لماذا تسأل؟»

ـ لقد جاء إلى المكتب وأخذ ينظر إليّ وكأنني عدوه، كما أنه ألقى أسئلة كثيرة عنك. لم يكن منظرك جميلاً عند سقوطك قبل أن نرسلك في سيارة الإسعاف لنظن أنه وقع في غرامك... ما الأمر إذن؟»

ـ كنت أعرفه في حداثتي، فنحن من نفس القرية.

فقال: «هذا لا يفسر الأمر، لقد أعطيته تقريراً عنك ولكن كان بإمكانه أن يتصل بالمستشفى تليفونياً لأجل ذلك. ساورني شعور بأنه يظننا أكثر من مجرد صديقين حميمين ولم يعجبه هذا».

فقالت: «لم يحدث بيننا شيء قط».

قالت فران هذا، مفكرة في أن ذلك من جانبه على الأقل. ونبذت من ذاكرتها لمعان عينيه ذاك عندما رآها في ردهة المسرح.

هز سيث كتفيه، وإذا بعينيه تنظران خلفها نحو الباب، ثم هز رأسه بعنف يجتذب انتباهها: «لا تقولي إنني لم أحذرك».

التفتت فران بسرعة... كان غرانت يتحدث إلى الممرضة

المسؤولة في مكتبها الزجاجي ولم يكن قد رآها بعد. شعرت بالذعر يمسك بخناقها. عادت تلتفت إلى سيث. كان رجلاً حسن المظهر وخطرت لها فكرة فقالت بسرعة: «سيث، لا تتركني معه».

ألقى عليها نظرة سريعة متسائلة فشعرت بوجهها يتوهج وهي تتابع: «هل تمانع في أن تتظاهر... بما يظنه فينا؟»

فسألها: «أتريدين أن تقتلني ليبي؟»

فهمست: «أرجوك، ليس لدي وقت أفسر فيه الأمر الآن. ولكن أرجوك، هذه المرة فقط. فهو لن يعود مرة أخرى إذا أنت فعلت هذا».

فقال ضاحكاً: «حسناً يا عزيزتي، أظنني أعلم ما تريدين. ولكن إذا سمعت ليبي بذلك، فسأتخلى عنك على الفور».

ابتسمت شاكرة بينما عاد يقول: «تعالي إذن» وانحنى فوقها وعانقها.

لم يكن لديها وقت تفكر فيه كيف نوى الاستجابة إلى طلبها، ما جعلها تشعر بصدمة. لقد فوجئت عندما أحست أن عناقه لم يكن زائفاً.

وعندما رفع رأسه قالت بضيق: «ما هذا يا فتى؟ لا تنسى أنك متزوج».

نهض واقفاً وهو ما زال ممسكاً بيدها، وإذا بها ترى غرانت واقفاً عند أسفل السرير ينظر إليهما.

بدا الوعيد في وجهه لحظة، ما جعل سيث يستقيم في وقفته متحدياً، بينما قالت فران بسرعة وتوتر: «غرانت، ما أجمل أن أراك! إنك تعرف سيث، أليس كذلك؟»

ألقى غرانت عليه نظرة جامدة: «لقد سبق والتقينا».

فرد سيث ببساطة: «يدهشني أننا لم نتصادف من قبل. إنني لا

أتعامل مع شؤون المسرح. ولكنني أتعاطى شؤون التلفزيون التجارية، كما تحضر أوائل العروض وحفلات العمل. من مصلحة الفتيات أن تؤخذ لها صور مع المشهورين فتحصلن على دعاية مجانية».

ونظر إلى فران بابتسامة ماكرة متابعاً: «ربما يمكننا عقد اتفاق مع صديقك هنا يا عزيزتي، بعد أن تعودي معي إلى البيت طبعاً».

قال جملته الأخيرة بلهجة ذات معنى.

رأت فران غرانت يتصلب، منكمشاً داخلياً... رباه! لم تكن تريد أن يصل سيث إلى هذا الحد. ولكن ما أهمية ظنون غرانت بها ما دام لن يعود إلى تعذيبها وإغرائها بما لا تجرؤ على التفكير به؟

أخذ سيث يخوض في أحاديث تجارية طالما سمعتها من قبل، راسماً صورة زاهية لما يعد به مستقبلها. ولم تعلم السبب إلى أن أدركت أنه يجعل بينهما صلة بطريقة يبدوان فيها عاشقين منذ مدة طويلة، مما جعل فران تشعر بالعجز وهي ترى وجه غرانت يزداد توتراً كل لحظة.

نظر إلى سيث باحتقار، ثم أدار له ظهره بشكل مهين وسار بجانب السرير.

نظر إليها لحظة وقد بدا الحزم في فمه ثم سألها بخشونة: «هل هذا صحيح؟»

حاولت أن تقول نعم... فقد كان هذا هو القصد من هذا المشهد التمثيلي... ولكن الكلمة لم تخرج من فمها. واحمر وجهها خزياً ونظرت بسرعة إلى سيث الذي كان واقفاً كالتمثال وقد امحى من وجهه كل تعبير.

اعتبر غرانت سكوتها ونظرتها السريعة تلك جواباً. فتوتر فكه وقال: «فهمت».

نظرت في عينيه فقرأت فيهما مزيجاً غريباً. احتقار؟ نعم. نعم. هذا ما توقعته، ولكن ليس الأسف أو ذلك الجوع الغريب الذي بدا فيهما جزءاً من الثانية قبل أن يضيف قائلاً: «حظاً سعيداً إذن».

وبإيماءة قصيرة لسيث، استدار مبتعداً، بينما استلقت فران على ظهرها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتبعه بنظراتها.

وعندما انغلق الباب خلفه، تنفست بعمق بينما سألها سيث: «هل أنت واثقة من أن هذا ما كنت تريدينه يا عزيزتي؟»

فأومأت تجيب: «أظنك تجاوزت الحد قليلاً ولكن هذا غير مهم».

فهز كتفيه: «تعنين أنك لا تريدينه أن يظننا عاشقين؟ إذا أردت القيام بأي عمل فليكن ذلك بشكل كامل. لا أدري ما شأنكما أنتما الاثنين، ولكن صدقيني ما كان بإمكانك التخلص منه بغير هذا. إنك لم تري وجهه عندما أخذوك إلى المستشفى».

سكت يمنحها وقتاً تزن فيه كلماته، ثم عاد يقول: «إذا أردت أن تغيري رأيك فمن السهل أن تعرفي أين يقيم».

التوى قلبها ألماً... لم يكن الحنين فقط هو الذي أحضر غرانت، لقد أدركت ذلك كما أدركه سيث، ولكن كلماته لم تفعل سوى تعميق الجرح. وتساءلت لماذا لم تخبر سيث أنه متزوج، لكنها لم تكن تثق بأن سيث سيبقى صامتاً إذا عرف ذلك، فقالت محاولة الابتسام: «كلا، شكراً، ومع إنني واثقة من أنك مخطئ بالنسبة إليه، إلا أنك آذيت سمعتي بنية طيبة. كل ما في الأمر أننا نحن العذارى حساسات بعض الشيء».

حدق إليها ذاهلاً ثم هتف: «آه، هذا ما لم أفكر فيه مطلقاً. آسف يا عزيزتي. ولكنني لم أكن أعلم أنه ما زال هناك عذارى في المنطقة التي تسكنين فيها».

فعادت تقول: «هذا غير مهم. ولا أظن غرانت يعتقد بوجودهن هو الآخر، وليس من المحتمل أن يخبر عمي وزوجته في القرية عني».

بقي ينظر إليها بعجز لحظة، ثم نظر في ساعته: «آه، عليّ أن أذهب... ابقي على اتصال بي».

فابتسمت: «وكذلك أنت».

سكت لحظة ثم سألها: «هل أنت واثقة من أنك لا تريدينني أن أعيده إليك؟»

فهزت رأسها: «كلا، إنها قصة طويلة. ولكنني لو كنت أستطيع الركض، لرأيتني أهرب في اللحظة التي دخل فيها من ذلك الباب».

فقال مرتبكاً: «يا للنساء، حسناً، انتبهي لنفسك يا عزيزتي».

في كل وقت زيارة كانت فران تراقب الأبواب يتملكها شعور مزيج من الأمل والخوف، ولكن غرانت لم يعد مرة أخرى قط.

عندما عادت إلى بيتها، احتفلت ساشا بها داعية الأصدقاء، وعندما انتهى عيد الميلاد، ابتدأت تتقدم لطلب وظيفة. وجدت أن المؤهلات لا تنقصها إلى الحد الذي كانت تخافه. كانت تحسن وضع الماكياج تماماً، مما جعلها تحصل على عمل في متجر كبير لبيع أصناف مساحيق الزينة. لم يكن الراتب كبيراً، لكن انتظام ساعات العمل من التاسعة صباحاً إلى الخامسة والنصف وقبض الأجر آخر كل أسبوع هو شيء له قيمته. فقد كان العمل في الإعلانات بشكل غير منتظم يثير قلقها على الدوام، كما أنه لم يكن عليها أن تتبع حمية غذائية دائمة. وفقدت النحافة المبالغ فيها المطلوبة للكاميرا فأعجبها شكلها الآن باستدارته.

كانت حفلات الشتاء تجري على قدم وساق، وسمعت فران عويل ساشا البائس وهي تتفحص بيان الحراريات ذات يوم:

«أفوكاتو.. أتعرفين مقدار الحراريات في الأفوكاتو يا فران؟».

ـ لا تكذبي على نفسك! كنت تعلمين جيداً ما هي عندما أكلتها.

فعبست ساشا: «بعد العاشرة مساء أفقد قوة إرادتي».

فأجابتها فران بجفاء: «هذا شيء معروف».

فرشقتها ساشا بالوسادة: «ليس هذا ما عنيته، تعالي معي إلى الحفلة هذه الليلة لتمنعيني من أكل الفستق، إن سعراته الحرارية عالية».

ـ استعملي الإيحاء الذاتي، عدّي بشكل تنازلي من العشرة إلى الصفر ثم تصوري وزنك زائداً عشرين كيلو غراماً ثم كرري بلهجة رتيبة: «يجب أن لا ألمس الفستق».

فقالت ساشا تقنعها: «آه، تعالي معي. الكل سيبتهجون برؤيتك، إنهم يسألونني دوماً عنك، وقد تتعرفين إلى بعض ذوي الأهمية من الرجال».

ردّت فران بابتسامة خفيفة: «إنني مقاطعة للرجال حالياً».

بقيت ساشا صامتة فتكهنت فران بأن سيث أخبرها عن غرانت. إنها لم تطلب منه كتم السر، وربما كانت نيته طيبة. لقد توقعت تقريباً أن يتصل بها، ولكنها لم تسمع منه كلمة. ربما انشغل الآن بزوجته ليبي.

أدركت أن ساشا تنظر إليها متسائلة فقالت: «كلا، صدقيني أنا لا أشعر برغبة في حضور الحفلات».

ـ لقد أصبحت انعزالية تماماً يا عزيزتي، وهذا سيء لأجلك.

فقالت فران: «كيف أكون انعزالية وأنا محاطة بالناس طوال النهار؟ ارتدي ثيابك واخرجي يا ساشا، وإذا أحضرت معك أصدقاء فاخفضي صوت الموسيقى بعد الواحدة».

خرجت ساشا فيما بعد بادية الأناقة، ممشطة شعرها الأسود إلى الخلف بإحكام. كانت بلوزتها الحريرية الحمراء مكشوفة للغاية ما

جعل فران تتأملها قائلة: «وربما تتعرضين للاعتداء».

فقالت ساشا عابسة: «إنني خارجة مع ريتشارد وهو يحبني بهذه الملابس، إنك لا تعرفينه فهو كالحيوان، ولكنه بالغ الثراء ولديه سيارة أسطورية».

ضحكت فران، وعندما خرجت صديقتها، أدارت بعض الموسيقى تبدد بها الصمت. كان ذوق ساشا في الموسيقى غريباً كملابسها.

اعتادت ساشا نفض رماد سيكارتها بشكل عشوائي، ولو أن زوجة عمها رأت الشقة وعدم نظافتها وترتيبها لأصيبت بصدمة. كانت فران تحب النظافة والنظام أيضاً، ولكنها لا تدفع من إيجار الشقة الباهظ سوى قسم رمزي، ذلك أن ساشا تكتسب في شهر أكثر مما تكتسب هي في عام. هذا بالإضافة إلى مبلغ سخي يصلها من والديها شهرياً، فكل الأثاث هو ملكها. وهكذا تركته فران لها كما تريده، لا تتدخل بشيء.

جلست في زاوية الأريكة تقرأ في كتاب. ولكن الحروف أخذت بعد نصف ساعة تغيم أمام ناظريها، فألقت به جانباً. كانت تشعر عموماً بصحة جيدة، ولكن ليس منة بالمئة بعد، إذ كانت تتعب بسهولة. وعندما قرع الجرس، أجفلت غير واثقة مما إذا كانت نائمة أم لا، ثم نهضت تفتح الباب متكاسلة.

وكان الطارق غرانت.

اهتزت لرؤيته وكأنما مسّها تيار كهربائي فوقفت جامدة. وأخيراً قال برقة: «ألن تسمحي لي بالدخول يا فران؟».

فتحت له الباب بعد لحظة تردد وأصابعها ترتجف. كانت مجنونة إذ لم تصفق الباب في وجهه ولكنها لم تستطع حمل نفسها على ذلك.

دخل حلتها وعباءة تجولان في أنحاء الغرفة. رأى فنجان قهوتها ومجلتها على ذراع الأريكة. كان واضحاً أنها وحدها وأنها تسكن هنا. عندما فتحت له الباب، أنساها الذهول أن المفروض أنها تسكن مع سيث. وكان غرانت يتوقع أن يرى ساشا.

وبجهد خارق، سألته بصوت جامد: «لماذا جئت؟»

ـ صدقي أو لا تصدقي، لآخذ عنوانك من ساشا.

ـ لماذا؟

ـ لكي أراك. وماذا أريد غير هذا؟ يبدو أنك تعيشين هنا. ألم ينجح أمرك مع سيث بيرنستين؟

يا إلهي، ما الذي كانت قالته بالنسبة لهذا الأمر؟

أجابت: «هذا سؤال لا أريد الإجابة عنه، وهو أمر لا يخصك، أليس كذلك يا غرانت؟»

لم يجب على الفور، وبقي يتأملها لحظة ثم قال: «ربما نعم، وربما لا».

تساءلت عما إذا كان يتعمد الغموض، فأخذت تبادله التحديق بصراحة تماثل صراحته في التحديق إليها. أخذت تفكر في أنها لم تلاحظ قط من قبل هذا الذكاء الذي يشع من عينيه. ربما في الرابعة عشرة كان اهتمامها منحصراً في مظهره الجسماني، ولكن تأثيره عليها الآن أقوى مما كان على الإطلاق.

تنفست بعمق وسألته: «ماذا تريد؟»

فأجاب مفكراً: «آه، هذا سؤال صعب آخر. لا أظن وقته قد حان بعد».

خلع معطفه دون أن تطلب منه ذلك، ثم أخذ يبحث بنظراته عن مكان يضعه فيه. مدت يدها تأخذه منه، شاعرة بالخجل من مظهر الغرفة الفوضوي، ثم صعدت به إلى غرفتها. وعند عودتها دخلت إلى

المطبخ لتصنع القهوة. وكانت يدها تهتز وهي تضعها على الصينية كما أراقت القهوة على المنضدة فوق الغطاء.

يا الله! إن استطاعة غرانت جعلها بمثل هذه الحالة إذلال لها. إذلال وغباء. لأن معرفتها به قليلة إلى حد كان عليها أن تسأله كيف يريد قهوته.

مسحت المنضدة بغضب ملقية بغطائها في الحوض. ثم وقفت لحظة تحاول تهدئة أعصابها قبل أن تعود إلى غرفة الجلوس.

كان غرانت مولياً ظهره إليها يتأمل اللوحة الوحيدة في الغرفة وهي من مقتنيات ساشا، لوحة زيتية أصلية دفعت فيها مبلغاً باهظاً.

لم يسمع خطواتها، وهكذا تمكنت لحظة من مراقبته دون أن يلحظ ذلك. أخذت عيناها تتأملان كتفيه العريضتين بشوق. وكأنه أحس بوجودها، فاستدار بسرعة وقال مشيراً إلى اللوحة: «هل هذه لك؟»

هزت رأسها نفياً مفكرة في أن معلوماته عنها تماثل معلوماتها عنه. «إنني أتذوق ما هو أقل غموضاً، مناظر الطبيعة وضوء القمر وكل ما يذكرني بقريتي».

منحها ابتسامة غامضة باهتة، فقالت: كيف تريد قهوتك؟

ـ ثقيلة نوعاً ما ودون سكر.

ناولته القهوة سوداء فبقي واقفاً وأخذت تخلي الكرسي من أشياء ساشا المكومة ليجلس. ثم سألها فجأة: «هل انتهى كل شيء بينك وبين سيث؟»

ـ لماذا تسأل؟

بدا عليه وميض من نفاد الصبر سرعان ما أخفاه، ولكن عينيه كانتا مليئتين بالعزم عندما رفعهما مرة أخرى، ثم قال بصوت هادئ:

ـ سؤالي كان واضحاً. فهل أحصل على جواب؟

ـ هذا يتوقف على الظروف.

رفع حاجبيه متسائلاً، فقالت بلهجة ذات معنى: «كيف حال جوليا؟»

جمد وجهه على الفور واضعاً حاجزاً بينها وبين أفكاره. وبعد لحظة من التردد، قال باختصار: «إنها بخير».

استدار يأخذ كوبه، فقالت بفتور: «إنك تحس إذن بنوع من الشعور بالذنب».

التفت إليها بسرعة: «نعم، ولكن ما دمت لا تستطيعين معرفة السبب، ما معنى هذا السؤال؟»

فوجئت بهذا السؤال وخشونة لهجته، فقالت متلعثمة: «أظن... أظن هذا واضحاً.. فهي زوجتك، و...».

فقاطعها بنفس الخشونة: «زوجتي سابقاً».

شعرت للحظة بكل شيء يدور حولها، فقد كانت الصدمة بالغة ومفاجئة. رأته مغلفاً بضباب، بينما كلماته تتردد في أذنيها إلى ما لا نهاية. ثم عاد وجهه إلى طبيعته مرة أخرى، فهمست وما زال الذهول يتملكها: «لم أكن أعلم.. لم يكن لدي فكرة.. متى.. ولماذا؟»

قال وقد بدا الغموض في وجهه: «تركتني منذ ثلاث سنوات، ألم تخبرك عمتك بذلك قط؟»

فقالت بنفس الهمس: كلا.

شعرت بالخزي البالغ لعدم ذهابها إلى قريتها منذ سنوات إلا في زيارات خاطفة، وكانت تقطع بحدة أي إشارة إلى غرانت مما جعل عمها وزوجته يتوقفان عن ذكره. ربما علما بطلاقه في حينه ولكن فاتها هي ذلك. ولم يحدث أي شيء منذ ذلك الحين يجعلها تتساءل عنه، أما غرانت فقد استطاع أن يخفي حياته الخاصة بسبب شهرته.

رفعت بصرها تواجه نظراته العابسة فسألها بصوت بالغ

الخشونة: «أتظنين حقا أنني لو كنت متزوجا كنت أحضر إلى هنا؟»

رأت في قوله هذا إدانة لها. فأجابته بحدة: «وما يدريني بك؟ ففي الرابعة عشرة لا يمكن للمرء أن يحكم على إنسان».

ما إن انطلقت هذه الكلمات من فمها حتى التهب كيانها ونضح جبينها بعرق الارتباك لما لا بد أن تثيره تلك الذكريات فيه كما تثيره فيها. رأت الآن التعبير الذي بدا على وجهه وهو يدرك أن ردة فعلها لم تكن مصادفة، ولم تعرف ما إذا كانت نجحت في هدفها وهل عليها أن تذعر لذلك كما لم يعد للأمر أهمية الآن. إن غرانت من هو بحاجة إلى الحماية منها وليس العكس.

لم يكن ثمة احتمال في أنه قد يعتبره حدثاً تافهاً يمكن نسيانه، فقد وضعت في قلبه خوف الله إزاء هيامها المراهق به.. أرغمته على أن يترك بيته وجياده وكلابه التي يحب لكي يهرب منها. كان في الثامنة والعشرين وواعياً جداً للخطر الذي تمثله له. فالهيام إذا ما قوبل بالاحتقار يمكن أن يتحول إلى كراهية بنفس العنف في الفتيات بتلك السن.

آه، نعم. إن غرانت سيتذكر، مثلها إن لم يكن أكثر.

أجفلت وهي تدرك كل هذا... إنه طبعاً يتذكر، وما الذي أحضره إلى هنا هذه الليلة غير تلك الذكريات؟ إنها راشدة الآن وإذا كان هيامها الساحق القديم به لم يقض عليه الزمن، فذلك لا يشكل أي خطر وإنما بشرى بالخير.

وهذا ما جعلها تشعر بالخزي حتى لم تستطع مواجهة عينيه أو النظر إليه.

كان يراقبها، ومهما كانت الأفكار التي أثارها ردها الحاد، فقد كانت مختفية خلف ملامحه الجامدة.

ثم قال بهدوء: «دعينا نعد إلى البداية... بعد أن علمت الآن

أنني عدت عازباً مرة أخرى. هل يمكنني تكرار سؤالي؟ هل انتهى كل شيء بينك وبين بيرنستين؟»

تملكتها الحيرة وهي تتساءل إلى أي حد يمكنها أن تخبره. من غير المعقول أن تعترف بأنها رتبت تلك القصة الخيالية، وأخيراً قالت ببساطة: «لقد انتهى».

ـ تماماً؟

أومأت إيجاباً، فقال: «هل الرجل مغرم بك؟»

ـ ربما.

فقال عابساً: «يا للشيطان المسكين».

كانت تعلم أن جوابها كان قاسياً، ولكنها لم تستطع توضيح الأمر دون أن تفضح نفسها. لم تكن تعلم شعور سيث نحوها. وإذ عادت الآن تتأمل الماضي، أدركت أنه كانت هناك دلائل. ولكن أمرهما بالنسبة إليها لم يخرج عن علاقة عمل تطورت إلى صداقة. كانا غالباً ما يجلسان في مكتبه يشربان القهوة ويتحدثان إلى وقت متأخر في المساء. لكنها عندما يأخذها إلى بيتها ترفض أن يعانقها تحية المساء، معتبرة أنه يحاول ذلك مع كل فتاة جميلة.

عندما عادت تنظر إلى غرانت، رأته ما يزال عابساً، ثم نظر إلى بنطلونها الجينز الأصفر وقال فجأة: «اذهبي وغيري ملابسك وسآخذك لتناول العشاء. لا تسرفي في التأنق».

قالت مترددة: «لقد سبق وتناولت الطعام عند مجيئي».

ـ سنذهب إذن لتناول المرطبات.

كانت لهجته حاسمة، ورأت لمعة هازلة في عينيه المتألقتين وهو يقول: «إذا كنت تتصورين أن بإمكانك أن تأمني على نفسك معي هنا، فأنت مخطئة».

احمر وجهها وقد فوجئت بجرأته هذه، فقالت بسرعة: «سأذهب

وأغير ملابسي».

وامتزج الغيظ بالإثارة وهي تسمع ضحكاته تتبعها.

كانت سيارته الديملر الزرقاء متوقفة قريباً من البيت. وعندما دخلت إليها قالت: «تغيير كبير من «الرانج روفر»».

وسرعان ما احمر وجهها إذ كان هذا يذكّر بالماضي مرة أخرى، وذلك اليوم الذي لا يمكن أن ينساه. وفكرت بيأس في أن السنوات الماضية ربما لم تفصل بينهما على الإطلاق. فهي ما زالت ترتجف بقربه كما كانت تلك الفتاة الطائشة ذات الرابعة عشرة.

ورأت غرانت يلتفت بسرعة لينظر إليها ويده ما زالت على مفتاح الإشعال، فأدركت أن مشاعره نحوها كمشاعرها نحوه. أحست به يتردد قليلاً، ولكنه ما لبث أن أدار المفتاح فانطلقت بهما السيارة فتنهدت بارتياح ممزوج بخيبة الأمل.

أخذها إلى مقهى فجلسا إلى مائدة خافتة الضوء في زاوية منه حيث تناولت كأساً من العصير. كان المكان صاخباً ما جعلهما يجلسان قريباً من بعضهما البعض لكي يسمعا ما يقولان، سألته عن كتاباته إذ رأت أن هذا أسلم موضوع.

ضاقت عيناه بالابتسام تحت أهدابه الكثيفة، وقال:

ـ إنه موضوع واسع. أي نوع منه بالذات تحبين معرفته؟

هزت كتفيها، شاعرة فجأة بالحرارة داخل معطفها الشتوي.

ـ لا أدري، في الحقيقة أظن من الصعب عليّ أن أفكر فيك باعتبارك كاتباً.

لم تستطع أن تتجنب خلفيتهما المشتركة إلى الأبد ولهذا قالت فجأة: «دوماً أفكر فيك مع جيادك وكلابك ومواسم حصاد القمح».

أومأ وهو ما زال يبتسم: «ماذا حدث للمهرة الكستنائية الصغيرة؟»

ـ اضطر عمي إلى تقديمها للإحسان، فقد أصيبت بالروماتيزم. وهناك كلب واحد بقي من الثلاثة التي تركها أبي، وهي كلبة كبيرة السن الآن.

أخذ يحدق في كأسه لحظة شارد الملامح: «إننا جميعاً أكبر بتسع سنوات، لقد تغيرت أشياء كثيرة».

ـ خصوصاً أنت، من مزارع ريفي إلى كاتب مسرحي شهير، كما أنك تزوجت أثناءها أيضاً.

قالت هذه الكلمات بالرغم من تحذير داخلي.

كانت هذه أقرب طريقة إلى سؤال مباشر، طرحته بحيث يمكنه تجاهله إذا شاء. ولكنه نظر إليها وقال:

ـ هذا سؤال محظور عليك يا فران.

ـ آسفة لفضولي.

هز رأسه وهو يتكئ إلى الخلف

ـ كلا، هذه الكلمة غير صحيحة، إنها تبدو فضولاً ولكنني أعلم أنها ليست كذلك.

استغرق في أفكاره فترة، ثم قال بصوت هادئ: «إن التحدث عن طلاق جوليا معك هو شيء مهين وغير عادل بالنسبة إليها، ما عدا أن أقول إنها كانت بريئة تماماً. الذنب كان ذنبي وأنا نادم جداً على ذلك، ولكن لسوء الحظ كان الأمر أحد تلك الأشياء التي من الصعب إيجاد حل لها، ولهذا...».

ورفع كتفيه، فقالت بسرعة: «فلنقفل الموضوع، كان من سوء السلوك أن أثيره».

أشاحت بوجهها عنه شاعرة بالغيرة كطعنة السكين.

لم تكن تتوقع منه أن يشتم جوليا أو يتكلم بالتفصيل عن أشياء خاصة جداً، ولكنها لم تكن مستعدة أبداً لسماع لهجته المليئة

بالشعور بالندم والذنب، وللوفاء البالغ الذي يبدو أنه ما زال يكنه لها.

حتى الآن لم تكن جوليا ملومة، امرأة لا عيب فيها جعلها تهجره. وتساءلت غير مصدقة عما تراه فعل.. وأي غول يكمن فيه جعل من المستحيل عليها العيش معه؟

خلعت معطفها شاعرة بالحرارة، فأخذه إلى الشماعة، وعند عودته كانت قد تمالكت نفسها مرة أخرى فسألته بشكل طبيعي: «متى ابتدأت الكتابة؟»

فأجاب بذهن غائب: «آه، دوماً كنت أكتب لتسلية نفسي. والله يعلم كم من الفصول الروائية مخبأة في الأدراج في منزلي. كان التلفزيون مجهولاً في تلك الأيام، فكنت أتسلى بالكتابة في ليالي الشتاء الطويلة. لم آخذ الأمر جدياً حتى ذهبت إلى الجامعة، ولكن لا تصدقي ما تقوله الصحف عن نجاحي السريع، فقد أمضيت أوقاتاً طويلة وكتبت الكثير قبل أن أستطيع تغطية تكاليف طباعة الأوراق على الآلة الكاتبة».

فقالت بجفاء: «إنك تشعرني بالمذلة، فأنا لا أعرف حتى الطباعة».

ـ ذلك لأنك لم تشعري بالحاجة إلى ذلك، كيف يسير عملك كفتاة إعلانات؟

ـ ليس محترماً كما يجب، وأكثر الناس يعتبرونه دالاً على ذكاء منخفض.

ـ في الحقيقة، عرفت أكثر من واحدة يبدو عليهن الغباء تماماً.

ـ هنالك أغبياء في كل مهنة، ولكن بإمكانك مثلاً أن تقول إنك طابع على الآلة الكاتبة دون أن يقترن ذلك آلياً بأنك غبي.

رمقها بسرعة: «لا تغضبي، فأنا لم أفترض ذلك».

ـ إذن فأنت من الأقلية... هذا يحدث طبعاً، ولكنه لا ينطبق علينا جميعاً. وأنا شخصياً أفضل أن أفصل بين العمل وحياتي الخاصة. إنني قط لم...

وسكتت فجأة، ما الذي كانت ستقوله؟ وانتبهت فجأة إلى أنها كانت قد قدمت إلى غرانت شخصية مناقضة تماماً لشخصيتها.

كان يراقبها ساخراً ثم سألها بخشونة: «وماذا عن سيث بيرنستين إذن؟»

ـ أنا..

واحمر وجهها وإذ رأى ذلك تجمدت ملامحه، ووجدت أنها الآن أكثر شعوراً بالخزي مما يعتقده فيها إذا هي أخبرته بالحقيقة.

نطقها بالحقيقة ما زال صعباً، ولكن عليها أن ترغم نفسها على ذلك. وبصوت منخفض، قالت: «إن ما قاله سيث في المستشفى جعلك تظننا نعيش معاً.. وهذا غير صحيح...»

وسكتت وازدردت ريقها وهي ترى عبوس غرانت السريع، ثم تابعت تقول: لقد كان يحدثني لتوه بأنك ذهبت إلى مكتبه ملقياً الأسئلة عني، وهو يميل إلى المبالغة في كل شيء. أعلم هذا، ولكن يبدو أنه ظنك... على كل حال، ظننتك ما زلت متزوجاً ولم أشأ التورط بأي شيء، وهكذا طلبت منه الإدعاء أن ثمة علاقة جدية بيننا. ولكن سيث بالغ في الأمر أكثر مما أردته أنا. فهو لا يحب أنصاف الحلول.

قال غرانت متجهماً: «هذا ما يبدو».

من المؤكد أنه أدرك أنها كانت مرغمة على طلب المساعدة من سيث، ولكنه لم يقل سوى: «وهكذا لم تكوني تعلمين أنني مطلق. هل هذا هو السبب الوحيد لذلك التمثيل؟»

ـ الجواب هو حضوري معك الليلة.

فابتسم ابتسامته السريعة المتألقة التي لا تنساها.

ـ إنها مكافأتي على المثابرة.

وأمسك بيدها: عودتي لم تكن سهلة.

بقيت يدها في يده وأخذ يمسّد أصابعها ببطء ما أشعرها بالتوتر، وارتجفت فجأة وهي تفكر في أنه كان يمكن أن تنجح في خطتها بسهولة فلا يعود إليها أبداً. وهمست: «أنا لم أفعل هذا إلا لأنني ظننتك متزوجاً، أنا آسفة يا غرانت».

فقال وهو يضغط على أصابعها: «وكذلك أنا. لقد سببت لي أسابيع من العذاب النفساني، كان الأرق يتملكني كل ليلة وأنا أتصورك معه...».

وترك يدها فجأة وسألها:

ـ أتراني أضغط عليك؟

ـ نعم... لا أدري.

وازدردت ريقها مرة أخرى وقد تملكها الاضطراب. لم تكن تدري ما يريده منها. ليس ما ظنته في البداية، إذ بالرغم من التجاذب الملموس بينهما، تعمد أن يخرجها معه بعيداً عن الشقة الفارغة.

قال يقطع عليها أفكارها: «تأخر بنا الوقت، والأفضل أن آخذك إلى بيتك».

نظرت حولها فرأت المكان فارغاً تقريباً، فمنحها ابتسامة ملتوية: «إنني مرتبط غداً بحضور اجتماع بشأن نص مسرحي، ولكن لا تأكلي عند عودتك من العمل مساء الخميس، فسآتي إليك حوالي الثامنة».

لم يسألها إن كانت تحب الخروج معه، ولكن ما كان ليخطر لها قط أن ترفض له طلباً. أما ما يحمله المستقبل فلا تستطيع معرفته.

عندما أوقف السيارة أمام شقتها، رفعت بصرها إلى النوافذ

المظلمة في الطابق الأول، فرأت غرانت يتبع نظراتها. جلس لا يتحرك وبينما أخرجت مفتاحها واستعدت للخروج، وإذا بحنين قاهر يدفعها في آخر لحظة إلى الميل نحوه وهي تهمس: «عانقني يا غرانت».

تأوه وهو يمسك بشعرها يبعدها عنه لكي يتمكن من رؤية وجهها وقال بخشونة: «ما الذي تحاولين عمله يا فران؟».

ابتعدت عنه فقال لها برقة: «علينا أن نعرف بعضنا البعض يا فران، ولكن إذا تدخلت العواطف فستعمينا عن ذلك. لا ينبغي أن نعلم ما يظنه الواحد بالآخر، بل ما نشعر به فقط».

فقالت موافقة بمثل لهجته: «نعم».

منحته ابتسامة سريعة مرتجفة وخرجت من السيارة، ولكن عندما دخلت إلى شقتها وقفت لحظة ويدها على الباب متسائلة عما إذا كان على صواب. لم تستطع قط أن تفصل أفكارها عن مشاعرها بالنسبة إلى غرانت، ولم تستطع أن تتصور كيف يمكن أن يصبح الأمر أسوأ مما هو.

* * *

٣ - في قلب الجنون

أطلقت ساشا صرخة حسد عندما أخبرتها فران أنها خرجت مع غرانت. وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وهي تهتف:

- عزيزتي، قلت لك إنه بدا قلقاً عليك إلى حد فظيع. أخبريني بكل ما حدث.

- ليس هناك الكثير... ذهبنا لتناول المرطبات وسيأخذني إلى العشاء مساء غد.

ورأت نظرات ساشا المتسائلة، فأضافت تقول: «إنه مطلّق وإلا لما خرجت معه».

فقالت ساشا: «هذا ما استغربته منك. ليس من شأني طبعاً لو لم يكن مطلقاً. ولكن هذا يحدث مشاكل بالغة خاصة بالنسبة لشخص مشهور. هل تريدينني أن أكون خارج البيت حين تحضرين؟»

فقالت محمرة الوجه: «كلا. أظن من الأفضل أن تكوني هنا».

فأطلقت ساشا صرخة قصيرة أخرى: «آه، هل هو محتشم إلى هذا الحد؟ ومع كل تلك الرجولة والجاذبية؟»

فقالت فران متوترة الأعصاب: «ساشا، عليك أن تراعي سلوكك حين يحضر فلا تقولي أي شيء مثير للاشمئزاز. وإذا أخذت تحققين أهدابك له فسأقتلك».

- إنه النموذج الذي أحبه حتماً يا حلوتي، ولكنني بشكل ما، لا أظنني النموذج الذي يحبه.

وبدا عليها الأسف ما جعل فران تنظر إليها متوعدة: «أخرجي

واصطادي حبيباً لك، أما هذا فهو حبيبي أنا».

ـ ها نحن نصبح أنانيتين للغاية ولم يمض على دخوله بيننا سوى ساعات، باستثناء حبك القديم له.

فقالت فران: «كان حبي له مجرد تفكير وتمنيات، ولكنني في تلك السن لم تسنح لي الفرصة للتعبير عن ذلك عملياً».

رمقتها ساشا بنظرة جانبية: «هل حدث يوماً أن شعرت بالإثارة؟»

فأجابت فران باختصار: «ليس بشكل كبير».

ـ حتى ولا مع الكاتب الشهير؟

ـ ربما كان هذا سيحدث، ولكنه لم يعانقني.

ـ ما أجمل هذا، أتعنين أن نواياه قد تكون شريفة؟

ـ ساشا، ليس لدي أدنى فكرة عن نوع نواياه حيث إنه حتى الآن لم يأخذني سوى مرة إلى المقهى، ولا أظن لديه أي نوايا.

فقالت ساشا بسخرية: «لا تكوني ساذجة يا عزيزتي، كلهم لديهم نوايا أثيمة».

لوت ساشا شفتيها هازئة، ثم نهضت فران فجأة وسارت تقف بجانب المدفأة. لقد بقيت مستيقظة ساعات بعد أن تركها غرانت، حائرة مشوشة الذهن لرفضه لها. ظنت في البداية أن هذا ما جاء لأجله ولكنه أثبت لها خطأها، ما الذي جاء به إذن؟

بالنسبة إليها، كان حبها الأول مستمراً. كل الأشواق الملتهبة التي أثارها فيها في سني مراهقتها تلك ما زالت موجودة ولكن رجلاً في الثامنة والعشرين لم يشعر نحو فتاة في الرابعة عشرة بما كانت تشعر هي به نحوه.

لكنه عندما أخذ يتحدث عن جوليا، ابتدأ ارتياب ضعيف يساورها. شعرت بجوليا شبحاً يجلس إلى المائدة.. شخصاً آخر بينهما غير مرغوب به. أظهر غرانت أسفه وندمه في طريقة حديثه

عنها.. تلك المرأة التي أحبها وتزوجها وشاركته حياته ست سنوات.. تلك المرأة ما زال يحبها.

كانت هي وجوليا متشابهتين إلى حد جعل عمها يقول إنهما أشبه بشقيقتين. إنهما متشابهتين إلى حد لا بد أن تذكره بجوليا في كل مرة ينظر فيها إليها. وفكرت فران ساخرة في أن جوليا استطاعت أن تثير الشهامة في نفس أكبر زير نساء، وتساءلت لحظة كيف تمكن غرانت من التوفيق بينهما في ذهنه.

خرجت في اليوم التالي وأنفقت أكثر مما تحتمله ميزانيتها في شراء ثوب للمساء. كان مصنوعاً من قماش رقيق هفهاف، لونه وردي مع رمادي. لم يكن هذا ذوقها المعتاد، ولم يبد شعرها الطويل ملائماً لطرازه هذا. ولكنها لم تدرك أن هذا الثوب هو بالضبط نوع الملابس التي كانت جوليا ترتديها إلا بعد أن رفعت شعرها إلى أعلى. إن طراز شعرها هذا مطابق تماماً لطراز شعر جوليا عندما رأتها حينذاك في المسرح.

كانت رافعة ذراعيها تحدق في نفسها مذهولة وقد توقف ذهنها عن التفكير عندما دق جرس الباب فقالت ساشا: «سأدخله يا عزيزتي».

عندما دخل غرانت من الباب التقت عيناها بعينيه بما يقرب من الخوف. وقف وقد بهتت ابتسامته ثم تقدم إليها وهو يقول: «أنزليه».

منعها الشعور بالقهر من أن تجيب، وقفت صامتة بينما أخذت أصابعه تتحسس شعرها تزيح الدبابيس منه فتنسدل خصلات الشعر الشقراء الفضية على كتفيها مرة أخرى. رفعها بيديه ثم تركها تتداعى من جديد، ثم قال آمراً: «دعيها بهذا الشكل».

وجدت فران نفسها ترتجف، لم تكن تقصد التشبه بجوليا... لم يخطر هذا ببالها قط. ولكنها حاولت بثوبها وزينتها أن تكون من

نوع النساء الذي ظنت أنه يعجب غرانت. وهكذا جعلت من نفسها، دون وعي منها، نسخة طبق الأصل من زوجته. ولجزء من الثانية، كشفت عيناه عن عذاب داخلي سرعان ما أخفاه. ولكنها أدركت أن ذكرى ذلك التعبير ستبقى معها مدة طويلة.

أخذت المشط بيدين مرتجفتين وأخذت تمشط شعرها. كان في الحقيقة أطول من أن يترك منسدلاً على الكتفين. أرغمت نفسها على الإبتسام قائلة: «حل وسط».

ثم جمعته ضفيرة واحدة كثيفة أسدلتها على كتفها من الأمام كما كانت تجعله أحياناً عندما كانت صغيرة.

بثوبها الغالي الثمن وكعبيها العاليين، بدت الآن امرأة محنكة فأومأ غرانت باستحسان عندما انتهت وهو يأخذ معطفها يساعدها على ارتدائه.

كانت ساشا تراقب كل شيء بعناية، واعية إلى أن هناك معنى لم يكن واضحاً لها، ولكن الطيبة ما لبثت أن كست ملامحها وهي تقول بابتسامة عريضة: «وقتاً سعيداً يا أولاد».

فرد عليها غرانت: «سنفعل، ولكن دون شكر لك. لماذا لم تخبريني بحق الشيطان أن فران تقيم معك؟»

فاتسعت عينا ساشا وقالت ببراءة: «لم تسألني قط، هذا إلى أنني كنت أظنك تعلم. فقد ظننت أن سيث أرسلك».

قال بابتسامة ملتوية: «ليس الأمر بهذه البساطة».

وأخذ يدفع فران أمامه وهو يتكلم، تاركاً ساشا تنظر في أثرهما بخيبة أمل. وعندما وصلا إلى الشارع، قالت فران: «هل هي مجرد طريقة كاتب مسرحي في إيجاد مخرج ناجح؟»

فقال معترفاً بابتسامة باهتة: «ربما، ولكنني أمضيت وقتاً شاقاً في البحث عنك. لقد سألت كل شخص تقريباً في تلك الحفلة اللعينة

قبل أن أعثر أخيراً على فتاة قالت لي إنها تظنك تقيمين مع ساشا لونغرين، وجعلني اسمها الغريب أعثر عليها بسهولة. حينذاك لم أكن أعرف حتى اسم المستشفى الذي أخذوك إليه».

فقالت بتردد: «كان يمكن لعمي وزوجته أن يعطوك عنواني».

ـ نعم، ولكنهما كانا سيرفضان.

وعندما نظرت إليه بدهشة، هز كتفيه: «سبق وطلبته منهما منذ فترة، ولكنني شعرت بأنهما برياني شخصاً لا يليق بك، ألم يذكرا لك هذا؟»

فهزت رأسها نفياً، ربما حاولا ذلك فأسكتتهما أو ربما كان هذا قبل طلاقه فظنا أنهما لا يخبرانه بذلك لمصلحتها. إذ ستتملكهما الشكوك لاهتمام شخص متزوج بها.

مدّ يده يمرّ بها على وجنتها، وعندما التفتت تنظر إليه، قال: «وهكذا لم أشأ أن أدعك تفلتين مني مرة أخرى بعد أن وجدتك».

ثم تحرك بالسيارة بينما أخذت هي تفكر في ما تضمنه كلماته. ولكن الوقت مبكر لكي تنشد منه ما بطمنتها. لقد قال بنفسه إنهما بحاجة إلى وقت يتعرفان فيه إلى بعضهما البعض وهو على حق.

ذهبا إلى مطعم ما كانت لتتمكن من تذكره فيما بعد، وكذلك الطعام الذي تناولاه. ورفع النادل أطباقه الفارغة دون أن يترك مذاقه ورائحته أي أثر في وعيها.

تبادلا الحديث والابتسام وأجابا على أسئلة بعضهما البعض وشربا قهوتهما، ولكن كل ذلك مرّ كحلم. وراء ذلك كان يكمن الواقع الحقيقي، وهو مشاعر ساحقة تحرقهما تحت سطح كل هذا. وما لبث الحديث أن تباطأ وذوى، وتوقف كل شيء ما جعل غرانت يقول فجأة مخترقاً الصمت: «فلنذهب».

دفع الحساب وقاد بها السيارة إلى بيتها خلال الشوارع المبتلة

والصمت يشملهما وكأنهما منومان. أخذت فران تتأمل المطر يسيل على زجاج السيارة الأمامي، تتألق بعض قطراته كالشرر تحت أضواء السيارات القادمة. وعندما توقف وأطفأ المحرك، كان الترقب قد أضناها.

أخذ يتأملها عدة لحظات ويداه تقبضان على مقود السيارة بحزم، ثم مدّ يديه إليها يجذبها إليه في عناق حار جائع هز أعصابها في استجابة عنيفة.

وعندما رفع رأسه أخيراً، كانت ترتجف دون أن تحاول إخفاء ذلك أو السيطرة عليه. أخذ يحدق الواحد منهما في الآخر في الظلمة، غافلين عن كل شيء. وإذا بخطوات تتصاعد من الرصيف تعيدهما إلى وعيهما، مراهقتان كانتا تتسكعان مرتا بقرب السيارة، فأخذ غرانت يتمتم منتظراً إلى أن ابتعدتا.

ـ نسيت أننا في السيارة في الشارع، كما أنك لم تكوني توقفينني عند حدي؟

أطلقت ضحكة مرتجفة: «ربما الأفضل أن لا تجرب اختباري».

قال مازحاً بجفاء: «لا فائدة منك».

ثم عادا يتعانقان إنما بعنف أقل، وما لبث أن تركها فأخذت تنظر إليه وهو يتمتم: «رباه، ماذا أفعل معك».

وعاد يدفن وجهه في شعرها وهو يهمس باسمها مرة بعد مرة. وفجأة ابتعد عنها بعنف وهو يقول بخشونة: «هذا لن يفيد أياً منا، أليس كذلك؟».

والتوت شفتاه بابتسامة أشبه بالعبوس وهو يضيف: «أو، على الأقل، أعرف تأثير ذلك عليّ».

مالت برأسها تريحه على المقعد مغمضة العينين، فقال مستفسراً: «فران...؟»

لم تستطع سوى أن تهز رأسها، فقال بصوت تخنقه المشاعر:

ـ يا إلهي، ما سأقوله جنون، وأنت مجنونة إذا قبلت.. دعينا نتزوج وننظر في بقية الأمور بعد ذلك.

مضت لحظة وهي تتساءل عما إذا كانت كلماته هذه من تخيلاتها، ثم التفتت نحوه بسرعة. كان جامداً متوتراً منتظراً الجواب، واكتسحها فرح عنيف هز كيانها، فقالت بمزيج من الضحك والبكاء: «وأنا مجنونة يا غرانت».

فوضع يده على كتفها، ثم أمسك بضفيرتها الغليظة يلويها:

ـ عليّ أن أذهب غداً إلى سكوتلندا لتصوير مسرحية، وسأغيب عشرة أيام، ولكنني سأحصل على رخصة الزواج صباحاً قبل رحيلي، ثم نتزوج حال عودتي. قد أحتاج نوعاً من إثبات هويتك.. بطاقة طبية أو رخصة قيادة أو ما أشبه.

ـ إن لدي شهادة ميلادي، وأظن بإمكاني العثور عليها بسهولة.

فشد ضفيرتها ثم تركها: «إنهم لن يطلبوا أكثر من هذا، هيا بنا نحضرها».

عندما نزلت من السيارة شعرت بالوهن في ساقيها كما شعرت به عندما خرجت من سريرها في المستشفى. وكانت يدها ترتجف بحيث لم تستطع إدارة المفتاح في القفل، فمد غرانت يده من خلفها يديره عنها. تساءلت متوترة عما إذا كانت لديه فكرة عن عدم خبرتها. ربما لا، إذ لم يكن في تصرفاتها ما يشير إلى أنه الرجل الوحيد في حياتها. أدركت ذلك الآن بعد أن هدأت أعصابها.

عند دخولهما، كانت غرفة الاستقبال مضاءة، وكان هناك ورقة من سامنا تقول فيها إنها صعدت إلى غرفتها لتنام.

نظرت إلى وجهها في المرآة فرأت جفنيها مسترخيين ووجهها متوهجاً.

وفجأة قالت وهي ترتجف: «سأصعد لإحضار الشهادة، إنها في مكان ما في غرفتي» ثم أشاحت بوجهها عن نظرات غرانت الثاقبة. ولكنه أمسك بمعصمها وأدارها إليه، فتشاغلت بالنظر إلى نقوش ربطة عنقه، فرفع ذقنها، ثم أمال رأسها إلى الخلف برفق وهو يقول: «في خلال أسبوعين سنكون متزوجين وهذا ما أريده».

أخذت تتساءل عن مقدار اعتباره للحب، ولكنها عادت فنبذت هذا السؤال من ذهنها. إنه يريد أن يتزوجها، ومهما كانت أسبابه، لا بد أنها كافية.

ابتسمت له فتركها تسرع إلى غرفتها حيث وجدت شهادة ميلادها حيث توقعت، وعندما عادت بها إليه كان قد وضع إبريق القهوة على النار في غيابها. ناولته الشهادة ففتحها ينظر إليها، ثم عبس هازاً كتفيه: «ما هذا؟ لم أكن أعلم أن اسمك هو فرانشسكا» وضحك.

أخذت تنظر إليه وهو يقرأ ما في الورقة، ثم قال: «إذن أبوك كان مزارعاً، ماذا حدث لأبويك؟» ثم طوى الشهادة ووضعها في جيبه.

ـ ماتت أمي عندما كان عمري عدة أشهر، ولهذا أخذني عمي وزوجته ليربياني. لم يكن لهما أولاد فكان في ذلك ما حل المشكلة بالنسبة إلى أبي. ثم مات أبي في حادث اصطدام حين كنت في الرابعة، إنني لا أتذكره مطلقاً.

أومأ يقول متأملاً: «فرانشسكا... اسم غير عادي، وهو يعجبني. ولكنك ستبقين دوماً فران» ونظر إليها باسماً.

بادلته نظراته، كان على صواب، فهما مجنونان، وهي مجنونة حتى لمجرد التفكير في قضاء بقية حياتها معه على أساس الأحاسيس المتبادلة فقط. فقالت محاولة أن تخفي ما كلفها قول هذه الكلمات:

ـ إنك لست بحاجة إلى الزواج مني، يا غرانت.

فقال بخشونة: «أعلم ذلك».

وابتسم. فسألته بلهفة: «لماذا إذن تريد أن تتزوجني؟»

ـ ربما لأنني أصبحت كبير السن بالنسبة إلى العلاقات العابرة.

ـ أخبرني بجد.

أخذ إبريق القهوة يغلي، فالتفت إليه يطفئ الموقد ثم أجاب: «لا بأس، الحقيقة هي أنك من السهل أن تهجري العلاقة الغرامية، وسبق أن أخبرتك بأنني لن أدعك تتركيني».

كادت أن تقول: «لكن جوليا فعلت» ومنعها الحذر من ذلك، لكنها تأكدت من أن غرانت قرأ أفكارها إذ رأت شفتاه تتوتران وهو يسكب القهوة وينظر حوله طالباً الحليب. فتحت فران الثلاجة وناولته العلبة، وعندما أخذها كان عبوسه قد تلاشى.

عادا بالقهوة إلى غرفة الجلوس، ودون وعي، جلست فران على كرسيها المعتاد. نظر إليها وقال بجفاء: «تعالي اجلسي بجانبي».

جلست بجانبه شاعرة بالخجل فعانقها قائلاً: «أظن عمك ما زال يرنص اقتناء تليفون، الأفضل أن تكتبي إليهما حالما أعيّن موعد الزفاف، هل تدعوهما؟»

ترددت ثم قالت بعد تفكير: «لا أرى ذلك».

كانت تعلم أن زوجة عمها ستمانع، فهي متدينة جداً ولا تؤمن بالطلاق ومن المحتمل أن تعرقل زواجهما.

لم يبد غرانت دهشة لذلك، وقال: «إذا ابتدأت جمع أمتعتك هنا، يمكننا نقلها إلى شقتي عندما أعود. كم تملكين من كل هذا الأثاث؟»

فأجابت مشيرة بإصبعها: «ذلك الإعلان».

قرأه باسماً، ثم طاف بنظراته في أنحاء الغرفة وهو يقول: «الحمد لله».

قالت بمرح: «ساشا لا تشعر بالأمان إلا إذا أحاطت نفسها بالتوصي».

لم يكن الأثاث العصري والغالي الثمن يعجب غرانت. سكت مفكراً، فسألته: «ماذا بالنسبة إلى أمك وزوجها، هل سيحضران؟»

- سأتصل بها تليفونياً، ولكنني أشك في ذلك، إذ عليها أن تقوم برحلة طويلة بالطائرة لتمضي دقائق في مكتب تسجيل الزواج. إنه لن يكون من تلك الأعراس التي تحلم بها الفتيات يا فران، فهل لديك مانع؟

فقالت بصدق: «كلا، ما حلمت قط بنفسي في ثوب العرس الأبيض أسير في الكنيسة».

وارتجفت قليلاً وهي تدرك أنها لم تتصور نفسها متزوجة على الإطلاق. عرفت عدة رجال في حياتها، أكثر من واحد منهم عرض عليها الزواج، ولكنها لم تشعر بحب حقيقي لأي منهم. ما الذي كان سيحدث لو أن غرانت لم يجدها مرة أخرى؟ شعرت برجفة وقد تملكها الذعر، لأنها أدركت أنها كانت ستنتظره دون وعي منها طوال حياتها.

سمعته يقول: «هل وجد لك سيث عملاً منتظماً؟»

أجابت دون وعي وهي ما زالت مستغرقة في أفكارها: «كلا، لم أحصل على عمل منذ خرجت من المستشفى».

ولم تنتبه إلا فيما بعد إلى أنه لا يعلم عن عملها في محل التجميل، لكنه كان الآن يتكلم في موضوع آخر. فرأت أن لا بأس في ذلك ما دام عليها أن تقدم استقالتها قبل أسبوع فقط وستفعل ذلك عندما تذهب لعملها غداً. ظنت أنه لا يحب فكرة عملها في الإعلانات كما أنه لا يحب الزوجة العاملة على كل حال. ربما يريد أولاداً! أرسلت هذه الفكرة رجفة في كيانها، ولكن ليس بإمكانها

سؤاله الآن، لقد قال لها إنهما سيتزوجان أولاً ثم ينظران في بقية الأمور بعد ذلك.

عادت من تأملاتها لتجده قد حل ضفيرتها ثم أسدل شعرها حول كتفيها. وعندما انتهى، قال باسماً: «ها أنتِ بدوت في الثامنة عشرة».

- إنني في الثالثة والعشرين.

- أعرف هذا. وأنا في السابعة والثلاثين، ليس بعيداً عن الأربعين. هل يهمك هذا يا فران؟

وبدا الجد على وجهه.

أجابت دون تردد: «كلا».

- هذا حسن، ولكنني أعدك بأن أتمكن من إرضاءك سنوات كثيرة بعد الزواج.

أبطأت في إدراك قصده، وأخذ هو يراقب استيعابها ذلك باسماً: «هذا هو السبب الذي جعلنا نتزوج يا فران».

أرادت أن تصرخ أن هذا ليس سببها هي.

نظر إليها غرانت مقطباً جبينه بشكل عابس تقريباً، ودون تفكير قالت له: «إنك لا تحب طريقة شعورك بي، أليس كذلك؟»

تقابلت نظراتهما فرأت نظرة دهشة في عينيه قبل أن يقول ببطء: «لا، لا أحبها».

- لماذا؟

وفجأة حول وجهه عنها. أخذت تنظر إلى جانب وجهه متأملة الخطوط التي رسمتها عليه السنوات التسع الماضية، وفكه القوي القاسي.

أخيراً قال: «أظن لأنني أراك نقطة ضعف في نفسي فأنا أكره ذلك. بإمكاني السيطرة على كل شيء آخر في نفسي ما عدا شعوري

نحوك. لم أكن قادراً في الأسابيع الماضية أن أمنع نفسي من التفكير بك رغم محاولاتي. كدت أجن في الحقيقة وأنا أتصور سيث عشيقاً لك».

وأدار رأسه ينظر إليها، ثم خفض أهدابه الكثيفة يخفي العنف في عينيه وهو يضيف: «ولكن إياك أن ترتكبي غلطة وتحاولي استعمال ذلك ضدي يا فران، لست تابعاً لك ولن أسمح لنفسي أبداً بأن أكون تابعاً لأحد».

سألته شاعرة بقشعريرة: «ولكن لماذا تكره ذلك؟ أليس هذا ما يشعر به الناس الواحد تجاه الآخر عندما يتزوجون؟»

وعندما لم يجب، قالت: «ولكنك كنت متزوجاً، هل شعورك هذا بسبب جوليا؟»

أمرها بخشونة: «دعي هذا يا فران».

ـ وكيف أدعه؟ هل يجب أن لا أتحدث أبداً عن تلك السنوات الست في حياتك؟

ـ سنتحدث عنها ذات يوم، ولكن ليس هذا وقته الآن.

استقامت في جلستها بسرعة: «إذن ربما ليس هذا وقت زواجنا الآن أيضاً».

ثم نهضت واقفة تدير له ظهرها لتخفي ما ارتسم على وجهها من ألم، لكنه وقف وأمسك بكتفيها من الخلف وقال بصوت حازم:

ـ ربما ليس وقته، ولكننا سنتزوج. إننا نعرف مشاعرنا وما الذي سيحدث، سواء هنا الليلة أم بعد عشرة أيام.

ـ هذا ليس سبباً كافياً، أليس في عهود الزواج ما يشير إلى أنه يدوم مدى الحياة؟

قالت ذلك بهدوء غريب لا يشير إلى ما تشعر به من تعاسة.

قال بعد لحظة صمت: «أعترف بأنني لا أعلم بالضبط كلمات

عقد الزواج المدني، ولكن ثمة شيء بهذا المعنى.. ماذا تريدين أن تقولي؟»

استدارت إليه فتقابلت أعينهما بصمت، فقال: «أنا لا آخذ على نفسي عهوداً لا أنوي الوفاء بها إذا كان هذا ما تخافين منه».

ردّت: «لقد قمت بذلك من قبل».

توترت ملامحه وشردت نظراته كما توقعت: «جوليا هي التي تركتني».

فقالت متجاهلة التحذير الذي بدا في ملامحه:

ـ نعم، أعلم هذا، ولكن من دفع الآخر إلى الطلاق؟

فأجاب بخشونة: «هي التي فعلت».

تساءلت عما جعلها تزعج نفسها بالسؤال، فقد كانت تعلم أنه ليس هو الذي طلب حريته.

ـ هل تزوجت مرة أخرى؟

سألته هذا مغامرة بالنظر إليه، ولكن وجهه عاد جامداً، ما عدا لمحة من نفاد الصبر لمحتها في عينيه فجأة كما حدث حين رآها في المساء مكوّمة شعرها على قمة رأسها.

قال: «كلا، إنها غير متزوجة، كفى تنقيباً يا فران. سبق وأخبرتك أن الذنب في ذلك ذنبي.. وأنا لم أخف ذلك عنك. ولكن هذا شيء لا يحدث سوى مرة واحدة نتيجة أحداث معيّنة».

ـ وأنت لن تخبرني عنها؟

ـ كلا، ليس حالياً.

ـ هل كان هناك شخص آخر.. متورطاً في الأمر؟

تردد جزءاً من الثانية: «ليس بالمعنى الذي تعنين. كان الطلاق بسبب الانفصال».

جذبها فجأة إليه ضاغطاً بأصابعه على ظهرها بقوة: «سيكون

الأمر على ما يرام يا حبيبتي، صدقيني. إنني أعرف ما كان الخطأ في المرة الأولى ولن أعود إلى تكراره، أقسم لك أن ليس هناك ما يخيفك.. خصوصاً أنت بالذات».

صدقته لأنها بحاجة ماسة إلى ذلك، فنظرت إليه بسرعة لترى عينيه تفيضان رقة وحناناً. مالت إليه بعد أن اطمأنت، وابتسمت له فقال: «إذن سأحجز موعداً للزواج».

عندما أومأت ضغط بوجهها على كتفه لحظة، ثم قال: «يجب أن أذهب بسرعة، سأتصل بك من سكوتلندا غداً ليلاً لأخبرك عن الترتيبات. سأعطيك رقم الفندق حيث يمكنك الاتصال بي إذا شعرت بحاجة إلى ذلك، وأيضاً مفتاحاً احتياطياً لشقتي يمكنك الذهاب للتفرج عليها في غيابي».

أخذته منه فأخذ ينظر إليها وهي تضعه في حقيبة يدها، وإذا به يضحك فجأة: «أحضري لي قطعة ورق يمكنني الكتابة عليها».

بينما أخذت تبحث عن دفتر بين أكوام قوائم الحسابات والمغلفات على الرف، سألته: «لماذا؟»

فأجاب ساخراً وما زال يضحك:

ـ أرى من الأفضل أن أعطيك العنوان لتكتبيه كذلك.

* * *

٤ ـ الوجه الآخر للحلم

أخبرت فران ساشا بالأمر على مائدة الفطور، فرفعت هذه عينيها عن طعامها وقالت بحذر: «هل أنت واثقة من أنك غير متهورة نوعاً ما يا عزيزتي؟»

فقالت فران بأسى: «متهورة؟ إن كلمة مجنونة هي ما تعنيه حقاً».

فقالت ساشا بصراحة: «هذا صحيح».

وأخذت تمضغ طعامها مفكرة، ثم أضافت تقول: «دوماً كنت فتاة حذرة. يبدو أن الحب الحقيقي طغى عليك فجأة».

نظرت فران في عيني ساشا الذكيتين ثم هزت رأسها: «كلا، لم يكن حبي مفاجئاً. إنه موضوع قديم جداً، فأنا لا أتذكر وقتاً لم أكن أحبه فيه».

قالت ساشا دون دهشة: «هذا ما فكرت فيه. حسناً، المسألة من ناحيتك مفهومة وطبيعية تماماً، فما هو السبب في هذه السرعة من ناحيته؟ وهل لذلك معنى خاص؟ كأن يتمكن من الحصول عليك مثلاً؟»

فقالت فران: «كلا، إن ما تعنيه لا يحدث هذه الأيام».

تملك الإغراء فران لحظة لإخبارها عن جوليا، ولكن خوفها من أن يثبت رأي ساشا مخاوفها منعها من ذلك.

فقالت ساشا ببطء: «إذن، فليس أمامك سوى الانتظار لكي تعرفي سبب تصرفه هذا يا حلوتي».

لم يكن في هذا ما يريح أفكار فران كما أخذت تفكر فيما بعد. لقد قال غرانت لها إنه يريدها وإنه لا يستطيع صرف أفكاره عنها. ولكنه لم يخبرها بأنه يحبها، واشتبهت في أن إغفاله ذلك كان متعمداً.

لم يقل في أي وقت سيتصل بها. وخافت أن تذهب إلى الحمام حين عودتها من عملها، فلا تسمع رنين جرس التليفون. وكانت تقلي بيضة عندما جاءت المكالمة أخيراً، فتركت المقلاة من يدها وهرعت إلى التليفون، وعندما قالت لاهثة: «آلو...».

أجاب غرانت: «أريدك أن تكوني متفرغة يوم الخميس الذي يعقب القادم، الساعة الثالثة».

شعرت فران بالضعف فجأة فانهارت على كرسي بجانبها. حتى هذه اللحظة لم تصدق تماماً أنهما سيتزوجان حقاً، تمسكت بالسماعة بشدة وهي تطلق ضحكة مرتجفة: «سأتأكد من دفتر مواعيدي ولكنني واثقة من تفرغي في ذلك الوقت».

فقال غرانت بصوت مازح: «هذا حسن، لأنني لن أنتظر إلى يوم الجمعة. أرسلي الخبر إلى عمك وزوجته إذا شئت، ولكن أخبريهما أن يلزما الصمت بهذا الشأن وإلا سببت لنا الصحافة إزعاجاً بالغاً. عليّ أن أبقى في لندن حتى ننتهي من تصوير هذه التمثيلية اللعينة، ولهذا لا يمكننا أن نذهب مباشرة إلى شهر العسل وهذا يجعل الصحافيين مزعجين تماماً لنا».

كان هذا شيئاً لم يخطر ببال فران، كانت ستتزوج غرانت الذي تعرفه من قديم في قميص مفتوح الصدر وبنطلون قصير. أما تلك الشخصية التلفزيونية الوسيمة البالغة الأناقة، فقد كانت لرجل مختلف ليس لها به صلة. ذكرت نفسها بأن تحذر ساشا من إبلاغ أحد بالأمر، ثم سألت: «كيف تسير أمور التصوير؟»

ـ لم تبدأ بعد، فنحن بانتظار توقف المطر، ونأمل أن لا يتحول إلى ثلج. قيل لي إن المناظر هنا خلابة، ولكن كل ما استطعت رؤيته من نافذة غرفتي هو شلال من الماء».

ـ ما شكل الفندق؟

ـ إنه كئيب المنظر، كما أن المواطنين غير ودودين، وأنا لا ألومهم إذ ربما لم يروا مثل هذه الجموع من قبل. إن غرفتي فسيحة كمخزن الغلال وسريري مزدوج بارد. كان علي أن أحضرك معي.

ـ ما أجمل هذا، تريدنا أن نتجمد نحن الاثنين من البرد؟

فقال ضاحكاً: «ليس أنت».

أدهشها أن وجدت نفسها تحمر خجلاً، وقبل أن تفكر في جواب، قال: «إن خلفي من ينتظر التليفون بصبر نافد، سجلي هذا الرقم فقد تحتاجينه».

وعندما كتبته فران في دفتر التليفون، أضاف يقول: «إذا صحا الجو فسنكون في الخارج طوال النهار، فاتصلي بعد الغروب، سأتصل بك غداً حوالي التاسعة مساء إذا كان يناسبك».

ـ يناسبني.

ساد صمت قصير قال بعده برقة:

ـ تصبحين على خير، يا حبيبتي.

ـ تصبح على خير.

وضعت السماعة وأخذت تحدق فيها لحظة... عندما تكون مع غرانت، تؤمن بأن ما تفعله هو شيء مقدر محتوم. أما ومئات من الأميال تفصل بينهما فهذا أمر مختلف. قال لها غرانت (حبيبتي)، ولكنها لا تملك من الثقة ما يجعلها تبادله نفس الكلمات.

المنطق يخبرها بأن عليهما أن ينتظرا، أن تمنح غرانت وقتاً يهدئ فيه مشاعره نحوها، ثم يناقشان مسألة علاقتهما بهدوء.

لكنها كانت تعلم أنها لن تنتظر. لقد سمحت له بأن يستعجلها لأنها خافت إذا منحت غرانت وقتاً، فقد يكتشف أن شعوره نحوها مؤسس على الوهم.

لأنها ليست جوليا، مهما كان شبهها بها، فسيجد غرانت أنهما مختلفتان تماماً في الصفات. كان من المجازفة أن تتركه يكتشف هذا بعد فوات الأوان، ولكن انجذابه نحوها قوي، فأدركت بالغريزة أنه إذا أدرك أنه أخطأ فسيتابع المحاولة لإنجاح الزواج، ومع الوقت لا بد أن يحبها لذاتها. ربما ليس بقدر حبها له، ولكن نادراً ما يكون الحب بين اثنين متوازياً. ويكفيها أنها ستكون معه.

كانت بطبيعتها كما قالت ساشا حذرة. ولكنها في اليوم التالي، أثناء الغداء، خرجت يتملكها مرح طائش، فاشترت للعرس طقماً أبيض ذا رسوم إغريقية على حاشيته. كان الثمن في غير هذه المناسبة كفيلاً بأن يدفعها إلى الإغماء، لكنها هذه المرة لم تهتم. وهكذا بعد أن حسبت ما تدين لها ساشا به أجراً للشقة، أنفقت كل ما بقي لديها. وعندما انتهت من شراء حذاء مناسب، كانت من التأخر في عملها بحيث لم تجرؤ على العودة إليه، وهكذا أمضت بقية النهار في الطواف على واجهات المتاجر. إن غرانت سيتزوج عروساً مفلسة، وهكذا اشترت قمصان نوم وملابس داخلية ثمينة.

عندما عادت إلى البيت، وضعت مشترياتها جانباً ثم أخذت تفرز من ثيابها ما تريد الاحتفاظ به وما تريد تركه. وعندما انتهت، ألقت نظرة شاملة على ملابسها في الخزانة آسفة، لم تكن كثيرة.

عادت تفحص الملابس التي نبذتها ولكنها لم تجد شيئاً مفيداً. كانت قديمة الطراز لا يمكن أن تعجب غرانت، فهو يعيش في بيئة مختلفة.

رأت مقدار هذا الاختلاف فيما بعد وهي تقف مترددة عند عتبة

باب شقته. دخلت ببطء الغرفة الرئيسية شاعرة كأنها متطفلة، متكمشة داخلياً وهي تقارنها بشقة ساشا. لا عجب أن قال (الحمد لله) عندما أخبرته أن الأثاث لا يخصها... شعرت بالغم لحظة وبما يدفعها إلى الهرب صافقة الباب خلفها. لكن هذه سخافة، فهي ستسكن هنا بعد أيام وسيكون هذا بيتها. حاولت أن تتصور نفسها تكنس السجادة الذهبية الداكنة بالمكنسة الكهربائية وتزيح ستائر النافذة الأنيقة. حاولت لكنها لم تستطع، كان كل شيء غريباً عما تعودته. وعندما نظرت إلى ورق الجدران الحريري برسومه الجميلة والأثاث الأثري الرائع، بدت لها غرفة ساشا غير المنظمة، مريحة عزيزة.

حاولت التغلب على رعبها، فعادت إلى البهو وفتحت باباً آخر رأته يؤدي إلى غرفة نوم غرانت. غرفتها وغرفته، كما حدثت نفسها... شاعرة بالارتياح لأن كل الأثاث كان عصرياً، من السرير الواسع إلى السجادة المنقوشة. أخذت عيناها تتأملان أنحاء الغرفة ثم عادتا إلى السرير الذي ستشترك فيه مع غرانت، واحمر وجهها... في أية ناحية سيكون نومها؟ في أية ناحية كانت جوليا تنام؟

شعرت بغثيان مفاجئ، فتحولت إلى الأدراج وأبواب الخزانات فرأتها تحتوي على كتب فقط ودفاتر وعدة صحف مطوية على كلمات متقاطعة نصف منتهية، لم يكن في أي منها أشياء أنثوية.

نظرت إلى بقية الغرفة بسرعة ثم جلست على حافة السرير وقد تلاشت المشاعر التي جرفتها. لم يكن ثمة أثر لجوليا هنا.

ولكن ربما هناك غرفة أخرى. عادت إلى البهو وفتحت باباً آخر فتنفست ارتياحاً وهي تراه مكتباً. رأت آلة طابعة موضوعة على منضدة بجانب النافذة وصفاً من كتب المراجع على رف بجانبها.

كان كل شيء منظماً تماماً، فخرجت مغلقة الباب خلفها بعناية. الباب الآخر كان للحمام، وفي آخر البهو رأت المطبخ الفخم

العصري لكنه خال لم تر فيه سوى القليل من أدوات الطبخ. بدت لها غرفة صغيرة متفرعة منه، فوقفت عند العتبة، لم تر فيها غسالة كهربائية رغم أن الصنابير والخراطيم كانت موجودة جاهزة لها.

لم تسكن جوليا هنا كما يبدو، لو كان غرانت أزال كل أثر لها فهو لن يصل إلى حد إلقاء الغسالة الكهربائية خارجاً، وجوليا لا يمكن أن تعيش دون غسالة.

كان من قوة شعور فران بالارتياح أن شعرت بالوهن في ساقيها. قررت أن تصنع لنفسها فنجان قهوة، وما إن جلست تشربه حتى أدركت كل شيء.

لم تسكن جوليا هنا قط ولا بد أن غرانت انتقل إلى هذه الشقة بعد أن تركته. ولكن هذا ليس بيته الحقيقي، بيته مبني من الحجر الرملي ويقوم على التل، وهو سيعود إليه يوماً ما.

تملكها ذعر غير معقول ولكنها قاومته. هذا لن يحدث قريباً. إنهما سيمضيان بعض الوقت هنا أولاً، وقد لا يعودان إلا في نهاية الربيع ومن المؤكد أنها في هذه الأثناء ستكون قد وطّدت علاقتها مع غرانت بحيث لن يهددها شبح جوليا بعد ذلك.

مرّ الوقت قبل عودته متراوحاً بين السرعة والبطء. كتبت إلى عمها وزوجته عن الأمر طالبة الكتمان شارحة السبب. ولكن بالرغم من علمها بكراهية زوجة عمها للاتصال من التليفون العمومي، لم تدهش وهي تستقبل مخابرة منها في اليوم التالي.

سمعت الصفير المتقطع، وبعد محاولات لا تنتهي لزوجة عمها وهي تضع النقود، ثم الاتصال أخيراً، جاءها صوت المرأة لاهثاً: «فران، أهذا أنت؟»

ـ نعم، إنها شجاعة منك أن تتصلي.

ـ حسناً، اتصالي لا بد منه، فأنا لم أصدق ما قرأته في

رسالتك... إنك لم تتحدثي بكلمة عن السيد ميرسيير من قبل قط، لم يكن لدينا أنا وعمك أية فكرة.

فأجابت فران معتذرة: «لقد قررنا ذلك بشكل مفاجيء. جاء لزيارتي في المستشفى بعد العملية، فابتدأت الأمور من ذلك الحين».

جاءها صوت عمتها المذعور واضحاً: «ولكن هذا الوقت ليس كافياً لتقرري الزواج منه».

ساد بعد ذلك صمت قصير عادت المرأة تقول بعده متهمة: «ولماذا علينا أن لا نخبر أحداً؟»

ـ لم أفعل شيئاً غير لائق إذا كان هذا ما تظنينه؟

فردت عليها المرأة بحدة: «أنا مسرورة لسماع ذلك، ولكن هذا ما سيظنه كل شخص هنا. كل الجيران سيتساءلون طبعاً عن السبب الذي يجعلنا لا نذكر أن ابنة أخينا ستتزوج السيد ميرسيير».

ـ لا بأس، أخبريهم!

وتنهدت. سيكون من المزعج لغرانت إذا ذاع الخبر، ولكن هذا أفضل من التسبب بإحراج غير ضروري.

تابعت زوجة عمها تقول: «هذا إلى أنهم سيتحدثون على كل حال وسيكون الأمر صعباً بالنسبة إليك، هل فكرت في ذلك؟»

ـ ما هي الصعوبة في ذلك؟

فأجابت باستهجان وضيق: «لأنه كان متزوجاً من قبل، وزوجته الأولى كانت محترمة جداً هنا. قامت بكثير من الأعمال الخيرية كما أن والدها عميد في الجيش، أما نحن فأناس عاديون وسيكون هناك من لن يقبلك في مكانها».

ـ لا أظن الناس الذين نشأت معهم سيغيرون معاملتهم لي فقط لأنني سأتزوج من غرانت.

سكتت زوجة عمها وقد بان ضيقها واضحاً، ثم اندفعت تقول:

ـ ليس هذا فقط، لتشابهكما أنت وهي سيسبب كثيراً من الكلام.

فقالت فران بمرح: «وما الذي سيقولونه سوى أننا متشابهتان؟»

ساد صمت طويل جعلها تضيف قائلة: «أما زلت على الخط؟»

فأجابت زوجة عمها بلهجة طبيعية: «نعم، ولكن الناس يجمعون اثنين مع اثنين، أو على الأقل يعتقدون ذلك. دورا ماتيوس مثلاً... ستجابهين مشاكل هناك لأنها لن ترحب بك، وهذه حقيقة واقعة. فهي وفية لزوجته الأولى... وفية تماماً».

شعرت فران باليأس يتملكها، دورا ماتيوس هي مدبرة منزله منذ أكثر من عشرين عاماً ولن تتزحزح بسهولة. وازداد يأسها وهي تتساءل عما تمتاز جوليا به ما يجعلها تحصل على وفاء كل شخص؟ من المؤكد أن ليس هناك إنسان كامل، ولا بد أن فيها عيباً ما.

عادت زوجة عمها تقول باهتمام: «فران، هل أنت واثقة من أنك تعرفين ما أنت مقدمة عليه؟ انتظري قليلاً! تعالي إلى البيت لقضاء فترة حيث نتحدث عن الأمر».

صحيح أن الأمر سريع بشكل غير معقول، ولكن فران لم تجرؤ على الانتظار. فقالت: «إنني أحبه يا زوجة عمي».

سمعتها تتنهد: «كل الناس يظنون هذا وإلا لما تزوج أحد، وكثيرون يكتشفون أنهم كانوا مخطئين».

لم تشأ أن تضيف أن غرانت هو واحد منهم، ولكن فران أدركت أن هذا ما تعنيه. من الواضح أن هذا الطلاق جعله يسقط من عليائه.

قالت مازحة: «كفى تشاؤماً وإلا تمنيت لو لم أتصل بك».

ـ لا تقولي هذا! إنها فقط الصدمة التي أصابتنا حينما تلقينا رسالتك. لم أتصور قط شيئاً كهذا، ومن الطبيعي أن أقلق من هذه السرعة.

ـ لكن هذا أفضل من أن أتزوج شخصاً تجهلينه.

ـ قد يسعدني هذا أكثر.

جمدت فران ثم قالت محتجة: «أرجوك يا زوجة عمي».

ـ حسناً، عليك أن تواجهي واقع أن زوجته لم تتركه إلا لسبب قوي... فهي ليست من النوع الذي يهجر بدون سبب. هل أخبرك بالسبب؟

فقالت فران بصعوبة بعد أن تنحنحت: «كلا، أخبرني بأنه آسف لذلك جداً، ولكن السبب كان شيئاً لا يمكن إصلاحه».

ـ آه، كان آسفاً تماماً، أوافقك على هذا، ولا شك في أنه بذل ما في وسعه للمصالحة. من السهل أن يقول الشخص إنه آسف فيما بعد. ليس له عذر، حتى دورا قالت إنه لم يمانع بالطلاق فحاول أن يترك الخيار لها. ولكن ما أقوله أنا يا فران، أنه إذا لم يتمكن من جعلها تبقى رغم كل ما فعله لإقناعها، فلا بد أن هناك شيئاً فظيعاً. قالت دورا إن تعاستها كانت تحطم القلوب، فكانت تبكي طوال الوقت في غيابه».

قالت فران بجمود: «يبدو أن دورا ماتيوس كثيرة الكلام، هناك وفاء كهذا لمن يدفع الراتب كذلك».

ـ قد تكون أكثرت من الكلام حينذاك. ولكنها لو شاءت لقالت أكثر من ذلك، وهي لا تكذب، كما أنها لا تنكر أن ذهابها كان قاسياً عليه جداً.. جداً.

رأت فران قبضتها تشتد على السماعة فانهارت ببطء على الكرسي. لم تشأ أن تسمع... لم تشأ أن تعلم وتمنت من كل قلبها لو أن عمتها لم تتصل ولكنها وجدت نفسها تقول: «كونه شعر بالأسف هو شيء في صالحه».

ـ ربما لكنه نسي ذلك بسرعة.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ألفت فران هذا السؤال بشكل آلي، فهي لم تنشأ حقاً أن تعلم إنها بحاجة إلى وقت تستوعب فيه ما علمته لا أن تعلم المزيد.

ـ جاء إلينا يطلب عنوانك، ولكنني لم أر من الصواب أن أعطيه له. وشكرت الله بعد ذلك لأنني لم أفعل، وذلك حين ابتدأ يحضر نساءً إلى بيته، البعض منهن ممثلات.

قالت هذا وكأنها تقول مومسات.

تابعت زوجة عمها بحذر: «يمكننا القول إن هذه طريقته في محاولة النسيان، لكن رأيي أن هذا غير لائق مهما كان السبب».

قالت فران ضاحكة: «سأتأكد من أن هذا لن يحدث مستقبلاً».

ساد صمت: «إذن فأنت ستتزوجينه؟»

ـ نعم، تمنى لي السعادة.

قالت ذلك برقة بعد أن سمعتها تتنهد.

أخذت زوجة عمها تبكي بصوت مسموع: «أتمنى لك السعادة يا فران. أنت تعرفين هذا، كل ما في الأمر إنني قلقة عليك».

ـ كفى قلقاً إذن وكوني رقيقة مع غرانت حين تأتي لرؤيتكما.

ودعتها بابتهاج، ولكنها بعد ذلك جلست مدة طويلة لا تتحرك تنظر إلى الجدار بعينين لا تريان وهي تطمئن نفسها إلى أن لا شيء تغير، وأنها لم تعرف شيئاً جديداً، ولكن ما هزها هو تأكد مخاوفها. فالمعرفة تختلف عن الشكوك.

عندما أرسلت استقالتها من العمل، بدا وكأن الأيام تمر بسرعة وأصبح لديها الكثير من الفراغ الذي سمح للأفكار بأن تشغلها مما جعل لهجتها متكلفة في كل مرة يتصل غرانت بها. سألها مرة بحدة إن كان هناك شيء، ولكنها لم تستطع أن تخبره بخوفها من أن يعود إلى صوابه، فقد طلب منها الزواج مدفوعاً بلهفة مشاعره العنيفة نحوها.. وهذا ليس بالوقت المفضل بالنسبة لرجل ذكي طبيعي

للتصميم على الزواج، وعندما تهدأ عواطفه بعد ذلك سيبدأ مثلها الآن، في مناقشة جنونه هذا.

بسبب التأخر نتيجة الجو، تأجلت عودته إلى يوم الثلاثاء. وبأعصاب متوترة، أخذت تنتظر اتصاله بها. عندما قرع جرس الشقة، سارت إلى الباب نافدة الصبر خوفاً من أن تأتيها المخابرة أثناء فتحها للباب، وإذا بها تتسمر مكانها وهي تراه أمامها.

أخذها بين ذراعيه دون كلمة، وتساءلت شاعرة بالدوار عما جعل هذا الرجل مختلفاً عن غيره بالنسبة إليها، وما الذي جعل بينهما هذا التجاذب الغريب.

ثم قال لها بخشونة: «هل أزالت رؤيتي شكوكك؟»

قالت بضحكة قصيرة: «نعم، وكذلك خفقان قلبي وبرودة قدمي وكل ما تعرفه من أوصاف عانيت منها جميعاً».

ـ جلبها إليك أصدقاؤك وأقاربك؟

ـ لا يمكنك لومهم.

ـ لقد لمتهم وأنا جالس وحدي في غرفة نومي الباردة تلك، شعرت أن هناك من أخذ يؤثر عليك.

ضاقت عيناه فتملكها الخوف من أن يستجوبها عما قالته زوجة عمها. فسألته تغير الموضوع: «ألم تساورك أنت أية شكوك؟»

قال ماراً بيده على ذراعها وكتفيها دون وعي: «أنا أعرف ما أشعر به».

لم يكن هذا جواباً، فنظرت إليه بسرعة. وفكرت بصمت بأنها هي أيضاً تعرف ما تشعر به.

ولكنها لم تستطع أن تخبره لأن مشاعرهما كانت مختلفة... حتى الآن، وزفافهما يقترب، لم يقل بعد إنه يحبها.

* * *

وقفا بعد ذلك بيومين أمام موظف تسجيل الزواج. وتساءلت فران عما إذا سبق له أن عقد زواج شخصين من قبل بمثل هذه السرعة. كان ذلك مثار تسلية كبرى لساشا، ولكن الموظفين اللذين كانا شاهدي الزواج تظاهرا بعدم ملاحظة ذلك وأخذا يحدقان بالأزهار التي تملأ المنضدة.

موظف التسجيل وحده لم يبد عليه اي تأثر وهو يتلو صيغة العقد بلهجة رتيبة لكثرة تكراره لهذه الكلمات. ولعدم تمكن فران من تصديق ما يحدث حقاً، لم تكد تسمع ما كان يقوله.

استغربت سماع اسم غرانت الكامل وهو «تشارلس غرانتشام ميرسيير». ولم تكن تعلم أنه اسمه الثاني، ولا أنه كان اختصاراً لاسم «غرانتشام». ولكنه هو أيضاً لم يكن يعرف أن اسمها الحقيقي هو «فرانشسكا» وهكذا تلعثمت في أجوبتها فشعرت بعيني الموظف عليها.

انتهت الإجراءات قبل أن تدرك ذلك، وهكذا أصبحا زوجاً وزوجة. أمسك غرانت بيدها وهو يمس شفتيها بالقبلة التقليدية. احمرت وجنتاها وهو ينحني فوقها قائلاً: «انتهت الإجراءات، فلنخرج من هنا».

كان في الخارج مصور واحد يبدو عليه السأم متكئاً إلى الجدار، بلغ من افتتانه بثوب ساشا القرمزي بحيث لم يكد ينظر إلى العروسين وهما يشقان طريقهما. وعندما أصبحا آمنين في السيارة، تنهدت فران بارتياح، فقال غرانت راضياً: «لم أصدق قط أننا سنتمكن من الخروج دون أن يلحظنا أحد» والتفت إلى ساشا الجالسة في المقعد الخلفي: «شكراً لإلهائهم عنا».

أبدت ساشا إشارة تنصّل من ذلك، وفكرت فران في أن زوجة عمها كانت ستثور غضباً لو كانت موجودة. ووخزها ضميرها لهذا.

ربما كانت تحلم بعرس في الكنيسة ترتدي فيه ربيبتها ثوب الزفاف الأبيض بين وصيفات العروس والأزهار والدموع وهما ينطلقان في شهر العسل. من المؤكد أنها لم تتصور قط مثل هذا الاحتفال السريع غير المحترم والعودة السريعة إلى شقة غرانت.

أنزلا ساشا في طريقهما، وعندما ودعتهما بمرح: «سأراكما عندما تخرجان إلى الناس» رفعت فران بصرها إلى ما كانت نافذة غرفة نومها حتى ساعات قلائل، وتملكها الذعر.

أخذت تنظر حول شقة غرانت وهي تنتظره ريثما يبعد السيارة وحدثت نفسها بأن هذا أصبح بيتها الآن. كان قد حلّ الظلام فدخلت إلى غرفة الجلوس وأضاءت النور وهي تتساءل متى ستصبح كل هذه الأشياء مألوفة لديها كشقة ساشا. لم تشعر بعد بأنه بيتها حقاً، فما زالت ترى أشياء لم تلحظها من قبل.

وإذ عاد التوتر يتملكها أدركت أن يديها ترتجفان فضغطتهما على جانبيها. لا يمكن أن تقف جامدة في وسط الغرفة حتى يحضر غرانت فأسدلت الستائر وخلعت سترتها ثم دخلت المطبخ لتضع إبريق القهوة على النار. أخذ يغلي ويصدر أصواتاً فلم تسمع صوت قدوم غرانت إلا بعد أن أصبح خلفها، فأطلقت صرخة فزع وذراعيه تلتفان حولها.

مدّ يده بصمت وأطفأ الموقد ثم أدارها لتواجهه، وسرعان ما اشتعلت عواطفهما التي كانت خامدة أثناء النهار.

دفعها أمامه إلى غرفة واسعة خافتة الضوء أسبغ الشفق على السرير فيها لوناً وردياً. وقفت تنظر إلى السرير، ثم خلعت حذاءها واستدارت تواجهه...

* * *

فتحت فران عينيها لترى عيني غرانت تحدقان في وجهها، وأوائل خيوط الفجر تقع عليها. قال بصوت منخفض غير ثابت: «هذا ما

حلمت به يا فران في غرفتي الواسعة الباردة في سكوتلندا، أنت كل من فكرت فيه أثناء يقظتي ومنامي».

كان المفروض أن يملأها كلامه هذا سعادة لأنه لم يخب أمله فيها. ولكنها بدلاً من ذلك شعرت برغبة في البكاء.. فالهبوط البطيء من ذروة العواطف المحمومة جرّ الفراغ إلى نفسها، تاركاً إياها تعسة مشوشة شاعرة بالإهمال بشكل غريب. أرادت أن يحتضنها غرانت ويخبرها أنه يحبها لكي يريها أنها تعني له أكثر من مجرد هاجس جسدي. لكنها شعرت بأنها بالنسبة إليه خليلة أكثر منها زوجة.

توقفت عن التفكير وهي تتساءل عما جعلها تخدع نفسها حتى الآن. لم يكن غرانت يريد مجرد علاقة وإنما البديل الذي جعله منها في ذهنه. لقد أدركت ذلك أمس عندما وضع خاتم الزواج في إصبعها. لقد قبلته حينذاك ويجب أن تقبله الآن، ولكنها كانت تأمل أن يكشف حبها له عن مشاعر لديه أكثر عمقاً، مشاعر نحوها وحدها.

أخذت الدموع تتجمع في عينيها فقاومتها ثم دست جبينها في صدره، فأخذ يمر بيده على وجنتيها.

أغمضت عينيها فسمعته يضحك فجأة قائلاً: «لم أسألك إن كنت عرفت رجلاً قبلي».

لو كانت واثقة من حبه لطمئنته إلى ما يحب، ولكن استياءها منه منعها، لم تشأ أن تخبره الكثير عن مشاعرها نحوه فيعلم أنه الحب الوحيد في حياتها. لقد بقيت صورته سنوات تقف بينها وبين أي رجل تتعرف إليه، فيتلاشى تأثيره عليها قبل أن يبدأ. منعتها ذكراه من السماح لأي رجل آخر بأن يلمسها شعورياً وجسدياً. ولكن غرانت أحضر إلى زواجهما ذكريات زوجته السابقة، ونساء عرفهن لا

يحصيهن عدداً.

تملكتها لهذه الأفكار غيرة أشبه بالصدمة. أدارت وجهها إلى الوسادة خوفاً من كشف ما ارتسم عليه، فقال: «فران...» ثم سكت.

بدت في صوته نبرة غريبة جعلتها تشعر بالضعف، إنه في السابعة والثلاثين ودوماً كانت تعرفه رجلاً جذاباً، فهذا ينضح من شخصيته دون وعي منه ما دفعها لأن تتجاوب معه من أعماق طبيعتها. ولكن بينما لم تعرف هذا الانجذاب إلا معه، كان هو يتعرف إلى قدر ما يستطيع من النساء.

لكن من الغريب أنها لم تهتم بالأخريات، بجوليا فقط.

* * *

٥ ـ تخاف من سعادتها

ساد الصمت بينهما فترة، انتبهت معه فران إلى شعور بالذنب غير منطقي. فقد أدركت أن غرانت التقط التغيير الذي طرأ على ملامحها، وبالنسبة إليه لم يكن هناك سوى معنى واحد لسكوتها. سبق وندمت على ذلك ولكن اللحظة مرت وأي شرح الآن كفيل بأن يوصلها إلى منطقة محظورة.

استقام جالساً ومد يده ليمسح العرق عن رقبته وهو يقول ضاحكاً:

ـ من يحتاج إلى تدفئة مركزية؟

أخذت تنظر إليه وهو يرتدي روب الحمام ثم يسير نحو النافذة يسدل الستائر. إذن فقد قبل ما يعنيه سكوتها وتصرفه إزاء ذلك يدل على أنه لا يهتم بالأمر. يبدو أنه لا يهمه ما إذا كانت عرفت قبله عشرة من الرجال.

أغضبها تسامحه هذا. وعاد يتملكها لحظة ذلك الشعور العنيف بخيانته الذي تملكها عندما علمت بزواجه، ولكن المنطق تغلب عليها. لم يكن غرانت يعلم شيئاً عن مشاعرها العنيفة التي كانت تتملكها نحوه طوال تلك السنوات.

تذكرت المشهد التمثيلي الذي مثلته عليه مع سيث في المستشفى، فتملكها الذعر. ولكن لولا هذا التساهل لما كانت هنا الآن. أخذت تدير خاتم الزواج في يدها، ثم انقلبت تنظر إليه متوجهاً نحو الباب.

وقف ينظر إليها بشبه ابتسامة إزاء نظرة الاستفهام منها.

ـ لست ذاهباً بعيداً وإنما لآخذ «دوش» سريع. سأترك لك هذا الحمام إذا شئت.

هزت كتفيها ووقفت متصلبة الجسم، ولتريح عضلاتها ملأت الحوض ماء دافئاً وجلست فيه. وعندما خرجت من الحمام وجدت غرانت مستنداً إلى رأس السرير يشرب القهوة.

أشار إلى فنجانها على المنضدة إلى الجانب البعيد من السرير مبتسماً بتكاسل.

ـ ذاك هو نصفك الدائم من السرير.

فردت بحدة: «شكراً، ليس لدي خيار لحسن الحظ».

شدت حزام الروب ثم جلست على حافة السرير وظهرها إليه. جاهدت في أن تزيل الحدة من صوتها وتجعل كلامها مرحاً. كان صحيحاً أن ليس لديها خيار.. فدوماً كانت تنام وحدها كما أن غرانت لم يدرك أن ما قاله يوحي بمعنى آخر.

هل الزوجة الثانية دوماً بالغة الحساسية لكل كلمة تشير دون وعي إلى الماضي الذي كان يعيش الزوج فيه مع امرأة أخرى؟ ربما، ولكن قليلات منهن من تحتفظ، مثلها، بذكرى النظرة المعذبة التي بدت في عيني غرانت عندما حولت نفسها دون أن تدري إلى نسخة طبق الأصل من جوليا.

نبذت تلك الصورة من ذهنها وأخذت تشرب قهوتها. ولكن ذلك الخوف بقي مستمراً... لا مناص من أن يقارن غرانت بينهما، ومن نستطيع أن تصل إلى مستوى جوليا؟ ما عدا ربما في ناحية واحدة فقط، كما فكرت بشيء من الأمل. من المستحيل أن يتصور المرء جوليا المتحفظة الكاملة الصفات متجاوبة بنفس القوة مع غرانت. وهذا شيء أعلن بنفسه مبلغ أهميته لديه. إذا كانت هذه هي ميزة فران

الوحيدة، فقد أقسمت على أن تتوخى غاية الكفاءة فيها.

رفعت الكوب إلى شفتيها مرة أخرى، ولكن حركاتها جمدت عندما تخلل شعرها بأصابعه وأخذت خفقات قلبها تتسارع وكذلك أنفاسها.

تمتم يقول بنعومة: «لذيذة» ثم مال إلى الأمام يأخذ الكوب من يدها ويضعه على المنضدة وهو يقول ضاحكاً: «سأصنع لك كوباً آخر فيما بعد».

التفتت تنظر في عينيه اللتين تبعدان سنتمترات عن عينيها. كانتا ما تزالان تلمعان هزلاً.. ولكنها قرأت فيهما شيئاً آخر لا يمكنها أن تخطئه، تسارعت أنفاسها بينما أخذ يحدق إليها لحظة وقد اشتدت يداه على كتفيها.

سمعته يهمس: «فران؟» رفعت أهدابها برغمها لتلتقي بنظراته العميقة، قائلاً: «هكذا أريد رؤيتك فلا تحاولي إخفاء مشاعرك عني» وأخذ ينظر إليها لحظة بابتسامة خفيفة وهو يرى ملامحها تسترخي.

قال فجأة: «هل تدركين أننا لم نأكل شيئاً منذ غداء أمس؟ أرجو أنك تحسنين الطهي».

ـ طالما أنك لست كثير الانتقاد، فأنا أجد طعامي لذيذاً.

رفع حاجبيه: «بيضتان مقليتان؟ سجق؟ فطر؟ بندورة؟»

أنزلت قدميها على الأرض عابسة: «حتى الحديث عن هذه الأشياء يثير الاشمئزاز في مثل هذه الساعة من الصباح، يكفي كأس عصير وشريحة خبز محمص».

جذبها إليه يقنعها: «إنني أستغني عن السجق إذا كان هذا يسيئك حقاً. أنت تطهين فطوري، وأثناء ذلك أصنع أنا القهوة والخبز المحمص لك. ثم أجهز الغداء. وهذه الليلة سآخذك للعشاء في المطعم».

عندما خرجت من الحمام، كان في المطبخ يسير في أنحائه وفي يده قطعة خبز محمصة. يضع إبريق القهوة على النار ويجهز الأكواب والكؤوس. رأته يقضم قطعة الخبز، ولكن أي أمل في أن يكتفي بذلك تلاشى عندما أخرج البيض والسجق وكل الأشياء الأخرى من الثلاجة ووضعها على المائدة.

قالت تحتج بضعف: «لا أدري كيف يأكل إنسان كل هذا عند الساعة السابعة والنصف صباحاً. هذا يثير الغثيان، من المؤكد أنك لا تأكل هذا يومياً».

قال مؤكداً: «بل أفعل، فأنا متزوج الآن».

فقالت بعناد: «من كان يطهيه في العادة؟»

ـ أنا.

ففتحت فمها ساخطة فدس بقية قطعة الخبز في فمها يسكتها وهو يضيف قائلاً: «ولكنني لا أحب الطهي».

سألته وهي تبتلع الخبز: «أتعني أنك أغريتني بالزواج لأجل هذا؟»

ـ البديل الوحيد لذلك هو استئجار شقة مع الخدمة. وأنا لا أحب الانتقال من هنا.

تمتمت وهي تضع المقلاة على النار: «عظيم. أصبحت أعرف الآن قيمتي الحقيقية».

وأخذت تنظر إلى مفاتيح الموقد حائرة للحظة، ثم عادت تقول: «لا بأس. كيف تشعل الموقد؟ تبدو وكأن الشخص بحاجة إلى رخصة قيادة ليستطيع استعمالها».

أدار مفاتيح الموقد، فكسرت بيضتين في المقلاة وقد بدا النفور في وجهها: «انتظر حتى أخبر كل إنسان كيف أمضيت أول صباح من شهر العسل».

كانت تدير ظهرها له فسمعته يضحك وهو يحيط خصرها بذراعيه.

ـ هل ستفعلين ذلك حقاً؟ كنت أظن النساء أكثر رقة.

ابتعدت عنه ضاحكة ثم قالت شبه جادة: «دعني الآن وإلا احترق فطورك».

ـ انتظري حتى أخبر كل إنسان كيف رفضت عروسي حبي بعد أقل من يوم.

نظرت إليه بجانب عينها: «هذا القول يحتمل تفسيرات عدة بعضها في غير صالحك».

فقال هازئاً: «يا للمخالب الصغيرة النحيلة، ثم إنك أشعلت الموقد لتوك، فمتى ستشوين اللحم؟».

وأزاحها جانباً، ثم وضع كل شيء في المشواة قائلاً وهو يعدّل من نار الموقد: «والآن انتبهي».

قال هذا يريها كيف يحرك المفاتيح لضبط الحرارة.

لاحظت ذلك بعناية، ولكنها لم تشأ أن تريه ذلك فقالت تغير الموضوع: «متى تأتي الجرائد؟»

ـ هذا وقتها، هيا اذهبي وأحضريها مقابل إطعامك.

عبست في وجهه وذهبت إلى الردهة. عادت وعيناها على العناوين لتراه واضعاً الخبز للتحميص لأجلها، كما أن عصير البرتقال في الكؤوس على المائدة.

جعلتها كفاءته ترى نفسها زائدة عن الحاجة. بعد أن أحضرت إبريق القهوة، جلست تتظاهر بقراءة الصحيفة ولكنها في الحقيقة كانت تراقبه خلسة. كم يبلغ طوله؟ إنه يفوقها طولاً بحوالي خمسة عشر سنتمتراً بينما طولها يبلغ مئة وخمسة وسبعين، كان ظهره عريضاً تحت قميصه القطني. خفضت نظراتها إلى صحيفتها إلى أن وضع

طبقاً من الخبز المحمص أمامها وقال: «لا تتوقعي هذا كل صباح».

قرأ الصحف أثناء الطعام، ثم أخذا يحلان الكلمات المتقاطعة معاً تراقبه وهو يكتب الأجوبة، مقدمة حلولاً غالباً ما يرفضها.

رد عليها مرة ساخراً: «آه، يا امرأة! إنك أمية في الواقع».

فقالت باستياء أن المتوقع منه بصفته كاتباً أن يعرف كلمات أكثر مما بدا منه. وأخيراً شعرت بالانتصار عندما عرفت جواباً لم يعرفه هو.

أنهيا الطعام أخيراً، فذهبا إلى غرفة الجلوس حيث وضع بعض الموسيقى ثم أخذ يسخر كذلك من معلوماتها الموسيقية. كانت مجموعته كلاسيكية كلها، فأدرك على الفور أنها لا تستطيع التفرقة بين «موزار» و«منديلن». وأخذت بثأرها عندما أثبتت له أنه جاهل تماماً بالموسيقى العصرية تعيّره بأنه كبير السن ما جعله يجذبها على الأريكة يهددها: «سأريك من هو كبير السن».

أخذا يتعاركان بين الضحك والإثارة إلى أن استطاعت الهرب منه نحو الباب، لكنه أمسكها على الفور لينتهيا على السجادة وهما يلهثان.

بقيا مستلقيين أمام المدفأة لحظة، وعندما هم بالتحرك مبتعداً، أمسكت به رافضة السماح له بذلك فقال ضاحكاً:

ـ أعلم بأن ما أقوله غير شاعري، ولكنني أحترق فدعيني أذهب.

أطاعته، وعندما انقلب مبتعداً عنها نهض واقفاً يفرك كتفه وذراعه قائلاً: «يا إلهي! كدت أحترق من المدفأة».

ثم نظر إليها بعينين ضيقتين بابتسامة خفق لها قلبها: «لم يمض على زواجنا أربع وعشرون ساعة ومع ذلك أصاب بالإرهاق والاحتراق».

ـ الحياة مغامرة.

فقال ساخراً: ولديك الوقاحة بحيث تضربين لي الأمثال للتعزية؟
قالت وهي تنهض لتقف بجانبه: «لا بأس، سأصنع لك الغداء بدلاً من ذلك».
وضع ذراعه حولها: «هذا أفضل. ظننتك لن تقومي بذلك».
أخرجت علبة لحم فتحتها ثم أعدتها مع سلطة وبعد الغداء تناولا حلوى الكرز مع الآيس كريم.
ـ أراك طاهية ممتازة في تحضير كل ما هو مجمد أو محفوظ.
ـ نوعاً ما.
اعترفت بذلك وهي متكورة في زاوية الأريكة تتثاءب ناعسة، ولم تدرك أنها نامت إلا بعد أن هزها غرانت ففتحت عينيها لفنجان القهوة الذي كان يقدمه لها.
قال: «هاك. رأيت أن لا أدعك نائمة أكثر من ذلك، فقد نمت ساعتين».
عادت تتثاءب: «يمكنني أن أنام أسبوعاً، إنه نتيجة إزعاجي طوال الليل ثم الاستيقاظ عند الفجر».
قال ضاحكاً: «لقد ذهبت إلى الفراش الساعة الرابعة والنصف فلا ينبغي أن تكوني متعبة».
ردت بحدة: «نعم، ولكنك لم تأخذني إلى العشاء، فيا له من شهر عسل».
في النهاية لم يخرجا تلك الليلة. أيضاً، كان غرانت قد نظر في آلة تسجيل المكالمات في التليفون فوجد أن الأستديو يريد منه إعادة كتابة مخطوط تمثيليته. ولم يكن ينوي العمل فيها قبل عدة أيام، ولكنه أراد أن يراقب تسجيل الڤيديو لإحدى تمثيلياته التلفزيونية السابقة لكي يوضح بعض النقاط في ذهنه. كانت فران قد رأت فقط تمثيليته المسرحية الأولى فخلبت لبها وشعرت بالزهو حين رأت اسمه

على الشاشة. أخذ غرانت يراقب التمثيلية بهدوء ناقد، وعندما انتهى الشريط قال:
ـ حسناً، على الأقل يمكن للمرء أن يتعلم من أخطائه. إنها ليست أفضل أعمالي رغم أن المدير قدمها لنيل جائزة، فلنأمل له النجاح فهو يستحق ذلك.
نهض وأطفأ الڤيديو، ثم ابتسم لها برقة: «هيا بنا إلى الفراش يا سيدة ميرسيير، وجهزي نفسك للتراجع عن شكاويك».

* * *

كانت الأيام والأسابيع التالية مليئة بالسعادة بالنسبة إلى فران. كانا يختلفان بالنسبة لبعض الأشياء. بقي ينتقد رأيها في الموسيقى ويرفض أن يسمع الموسيقى العصرية من الراديو أثناء الإفطار، وبالمقابل كانت تتذمر من سماع السمفونيات الكلاسيكية.
أخذا يخرجان كثيراً في الأماسي، ولكن عندما عاد يعمل بانتظام أثناء النهار، شعرت بالضجر وأخبرته أنها تريد أن تستلم العمل من الموظفين المتعاقد معهم لتنظيف الشقة.
قال بشيء من الحذر: «هل أنت واثقة؟».
فعلمت أنه تذكر حالة شقة ساشا والفوضى الغارقة فيها كما رآها.
فقالت: «لا بأس. كانت تلك بيئة ساشا الطبيعية وليست بيئتي أنا».
كانا في الواقع منسجمي الآراء. كان غرانت شغوفاً بالنظام في مكتبه رافضاً السماح لها بمس أي شيء فيه. ولكنهما فيما عدا ذلك كانا يأخذان قضية النظام بشكل معتدل. كانت حريصة على نظافة ونظام المطبخ والحمامات.. وناسب كل ذلك غرانت تماماً. أحضرا غسالة كهربائية في الأيام الأولى، وفي الأسبوع التالي أدخل السرور إلى قلبها عندما اشترى لها سيارة.

لكن سرورها تحول إلى ذعر بالنسبة إلى موضوع القيادة. كانت قد حصلت على رخصة القيادة منذ ثلاث سنوات، ولكنها لم تجلس قط وراء المقود بعد ذلك، فأخذ غرانت يقودها إلى الضواحي يومياً حيث يسلمها القيادة وذلك إلى أن رأى أن بإمكانها أن تسوق وحدها السيارة في زحام المدينة بأمان. تساءلت كيف وجد الشجاعة للجلوس بجانبها هادئاً وهي تقود السيارة في شارع ريجنت المزدحم، ولكن عندما قالت له هذا. ضحك قائلاً: «إذا شئت الحقيقة، فأنا مذعور للغاية. والآن انتبهي إلى المشاة في الشارع، وفيما عدا ذلك فقيادتك جيدة».

أعطاها بطاقات مصرفية لتشتري ما هو ضروري من الملابس، فالدعوات إلى حفلات العشاء تتوالى وكذلك مناسبات أخرى المفروض أن يذهبا إليها، وقد أدهشه فقر خزانتها بالملابس.

أخذ ينقل أثوابها القليلة من ناحية لأخرى قائلاً: «ظننت العاملات بالإعلانات يملكن مجموعات كبيرة من الملابس لأجل الحياة المرحة التي يعشنها».

كان حاجباه يرتفعان بتساؤل فهزت كتفيها: «كان لدي عدد منها، ولكنها لم تكن من النوع الذي يعجبك، فأعطيتها لمن يحتاجها ولم أشأ شراء سواها إلا بعد أن أتأكد مما سأكون بحاجة إليه».

كانت هذه هي الإشارة الوحيدة منه لمهنتها السابقة. وباتفاق ضمني، تجنبا أي حديث عن ماضيهما قد يسبب احتكاكاً أو خلافاً. وذات مرة سكت غرانت فجأة عن متابعة كلامه، فأدركت أنه كان يهم بالحديث عن جوليا، وفي مناسبة أخرى قالت شيئاً عن سيث وإذ رأت برودة نظراته المفاجئة انتبهت إلى أن طريقتها الدافئة في حديثها، كشفت عن بعض التأثر بذلك الشاب. وتملكتها صدمة وهي تدرك أنه يعتقد أن سيث كان عشيقاً لها. ربما كان عليها أن توضح له أنهما لم

يكونا قط أكثر من صديقين. هذا الظلم في موقف غرانت منها أزعجها، فقالت متحدية: «لا حاجة بك للنظر إليّ بهذا الشكل فهو متزوج الآن».

سادت لحظة صمت قال غرانت بعدها ساخراً: «لقد حوّل عواطفه بسرعة».

نادراً ما سمعت تلك اللهجة منه قبلاً، وتمنت من كل قلبها لو أنها لم تذكر سيث مطلقاً، وهكذا هزت كتفيها ثم أشاحت بوجهها وما لبث غرانت أن غير الموضوع.

لم يبلغ بهما الخلاف أكثر من هذا إلى أن أخذ يحاسبها مرة على نفقاتها. كان دوماً كريماً نحوها في كل شيء منذ زواجهما، يسره شراء المجوهرات لها وأشياء أخرى لم تحلم قط بالحصول عليها من قبل. وعندما ذكر لأول مرة ثمن ملابسها، وافقت معه على أنها اجتازت الحد في ذلك.

لم يكن اختيارها لتلك الملابس الغالية لحاجتها هي أكثر مما كانت لشعورها بعدم الثقة بنفسها عندما تكون معه في المجتمعات مما يجعلها تخشى من ارتكاب أخطاء فاحشة. كانت تريده أن يزهو بها.. وأن تبدو جميلة أنيقة.. أن ترى عيون الرجال الآخرين تتبعها فتعرف أنهم يحسدونه.. كل هذا يزيد ثقتها بنفسها.

لهذا كله اشترت دون التفكير في الثمن، وقد كلفتها بعض الأغلاط الفاحشة في البداية كثيراً قبل أن تكتشف أنه متزمت جداً بالنسبة لكشف جسمها في المجتمعات.

عندما أخبرها بمجموع ما أنفقته، تملكها الاضطراب. حدقت إليه معقودة اللسان، فقال بابتسامة باهتة: «لا بأس، إننا لسنا مفلسين ويمكنني احتمال ذلك، ولكن أخبريني قبل أن تشتري أي شيء ثمين في المستقبل».

استجمعت أنفاسها لاعتذار حار وهي تكاد تبكي لرؤية كلمة «مديون» في بيان البنك أمام المبلغ النهائي، وعندما رأى نظرتها قال: «لا تقلقي، ليس كل هذا المبلغ بسببك فقد اشتريت بعض الأسهم، كما إنني أنفقت مبلغاً كبيراً حديثاً لشراء معدات جديدة للمزرعة. فقط أريد أن آخذ فكرة عن الوضع. إن لدي (حوالة دائمة) ولهذا أحتاج إلى أن يكون لدي حساب جار يكفي لتغطيتها».

أدركت أنه يقصد بقوله هذا التخلص منها برفق، ولكنها فجأة أدركت ما لا بد أن تكون (الحوالة الدائمة) تلك، فتبدد ندمها وحلت مكانه الكراهية. فقالت بوقاحة: «أنا آسفة، فقد نسيت أن عليك أن تنفق على زوجتين».

كانت تدرك أن لهجتها كانت لاذعة، فرفع عينيه إليها بسرعة قبل أن تتمكن من جلاء علائم التمرد عن وجهها. استمر ينظر إليها لحظة ثم قال بهدوء: «هذا شيء لا ينبغي لك التفكير فيه».

بلغ من تحكمه في صوته حداً بدا معه غير طبيعي. ثم أشاح بوجهه عنها وأخذ يفتح بقية رسائله. أرادت أن تعتذر لتبذيرها ولوقاحة جوابها، ولكن قبل أن تصوغ كلماتها أخذ يشتم فجأة لشيء قرأه، ثم مد يده إلى التليفون وقد ساد ملامحه عبوس بالغ.

بدا هياجه واضحاً من حديثه. ابتعدت عنه تمنحه وقتاً ليهدأ وبعد ذلك لم تستطع استجماع شجاعتها لاستعادة الموضوع، مهدئة ضميرها بأنها ستكون أكثر حكمة مستقبلاً بالنسبة إلى الإنفاق.

تركتها هذه الحادثة قلقة مضطربة، وعدا ذلك كانت تنظر إلى الحياة بأمل وشوق. كان غرانت يضحك عليها ويسخر من جهلها ويجعلها تعترف بأنها ابتدأت تستمتع بموسيقاه. كانت أحياناً تفاجئه وهو يراقبها منتظراً وكأنه يتوقع منها أن تقول أو تفعل شيئاً، ولكن لم تبدر منه أية إشارة إلى أنه نادم على زواجهما المتسرع.

أخذت مخاوفها وشكوكها تتلاشى تدريجياً، حتى إنها ابتدأت تنظر إلى عودتهما أخيراً إلى الريف بخشية خفيفة فقط. قد يكون قضاؤها الصيف هناك شيئاً سارّاً.. وربما بعودتها إلى ركوب الخيل ومقابلة أصدقاءها القدماء.. وقد تحمل بطفل لغرانت.

كانت هذه الأفكار تخطر لها كثيراً إلى حد أخذت تتساءل معه بأسى عما إذا كانت أصبحت مكتئبة.

لم تتغير عواطفه المحمومة نحوها. إنه لا يحتاج أحياناً إلا إلى النظر إليها بتلك الابتسامة الخفيفة الضيقة لكي يلهب مشاعرها نحوه.

لم يقل لها قط إنه يحبها، ولكنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن إغفاله ذلك غير مهم. وعدا ذلك كانت سعيدة للغاية.. سعيدة إلى حد لا يصدق ما يجعلها تستيقظ أحياناً وقد تملكها الخوف.. الخوف البالغ من أن يكون القدر منحها إياه بالغلط وسيعود فيأخذه منها، لأن سعادتها هذه هي أكبر من أن تعطى لشخص واحد.

وأحياناً تزعج نومه وهي تضغط بوجنتها على ظهره أثناء نومه متلهفة لطمأنة نفسها بأنه حقيقي وحيّ، ثم تهمس له كم تحبه وكم يعني بالنسبة إليها، تصف آملة بأن كلماتها قد تخترق نومه وأنه سيخبرها ذات ليلة عن حبه لها بالمثل.

* * *

٦ ـ أصعب من الخيانة

عندما حلت الكارثة، وقعت عليها بشكل غير متوقع على الإطلاق. كانا قد خرجا لتناول العشاء في حفل توزيع جوائز التلفزيون، وكانت فران ترتدي ثوباً جديداً اختاره غرانت لها بنفسه دافعاً فيه ثمناً باهظاً وكأنه بذلك يريد أن يمحو المشهد الذي ناقشها فيه بشأن نفقاتها.

أصبحت الآن أكثر ثقة بنفسها في مثل هذه المناسبات، ومع أنها نادراً ما كانت تستمتع بها إلا أنها تمكنت من أن تبدو بالمظهر المناسب، فتشع البهجة على من يهمها أمرهم، ودوماً مستعدة للقيام بكل ما يساعد غرانت، ثم تنكر بقوة عندما يسألها، أنها تجدهم مملين.

عندما انتهى العشاء ووزعوا الجوائز، أخذت تصفق وازداد حماسها عندما فاز مدير تمثيلية غرانت بجائزة. فهذا أمر مهم بالنسبة لغرانت ولكثير من الناس الذين يعرفهم ويعمل معهم.

سارت الحفلة بالشكل المألوف، جميع النساء تقبل بعضها البعض هاتفات: «حبيبتي»! وتساءلت متى تصبح معروفة إلى الحد الذي تتلقى فيه نفس المعاملة، وأجفلت عندما رأت امرأة متوسطة السن غريبة عليها تماماً تبتر فجأة حديثاً كان بينها وبين أشخاص آخرين، ثم تهرع نحوها فاتحة ذراعيها. رأت فران أن المرأة ستقبلها كما يبدو، فألقت على غرانت نظرة سريعة متسائلة، بينما أخذ هو يحدق إلى المرأة وقد جمد في مكانه. وعندما اقتربت، تحرك بسرعة

وكأنه يحاول التدخل ولكن بعد فوات الأوان... وجدت فران المرأة تقبض على يديها وتقبل وجنتيها، ثم أمسكت بيد غرانت وأخذت تنظر إليهما باسمة بسرور، وهي تهتف:

ـ يا عزيزيّ، ها قد عدتما إلى بعضكما البعض. آه، دوماً كنت أعلم أن هذا سيحدث.. ألم أقل لك ذلك؟ كان من الواضح أن الواحد منكما ملائم للآخر... كنت أعلم أن ذلك الانفصال الأحمق لن يدوم أبداً.

عادت إلى أصدقائها تشير إليهم بالمجيء، وسمعت فران غرانت يشتم بشراسة بصوت خافت، وهي نفسها كانت من الذهول بحيث لم تفعل شيئاً لتصحيح سوء التفاهم هذا.

حدث كل هذا بسرعة بظرف عدة ثوانٍ بحيث لم تستطع التفكير بوضوح أو تتساءل عما ينبغي أن يتصرف به غرانت، عدا عن غضبه الواضح.

سمعته يتمتم بعنف: «لماذا لم تضع تلك البقرة الغبية نظاراتها؟».

ثم ذهب في أثرها يناديها محاولاً إسكاتها: «براندا».

لم يكن ثمة مناص الآن من جذبهما الانتباه، فأخفض غرانت صوته وقال: «براندا، هذه ليست جوليا».

ولكن عدداً من الموجودين سمعوا ذلك فالتفتوا إليهما بفضول. وقفت فران جامدة شاعرة بالغثيان وهي تنظر وتسمع شرح فران. هل المفروض بها أن تتابع الابتسام حتى في لحظة كهذه؟

بدا الاضطراب على براندا ثم الكدر، ثم استدارت تنظر إليها مشيرة بعجز: «يجب أن أعتذر.. ولكنهما متشابهتان للغاية..» وعادت بخطوات متباطئة وأمسكت بيد فران تضغطها بشكل غريب وهي تحدق في وجهها ما يدل على قصر نظرها، ثم قالت بجد:

ـ آسفة يا عزيزتي، هذا محرج لنا معاً. ولكنني كنت حقاً واثقة...

رأت فران نفسها ما زالت حقاً تبتسم، فقالت: «لا بأس في ذلك على الإطلاق... فلا تقلقي لهذا».

كانت واعية إلى الهمس الذي ابتدأ حولهما. وذهبت براندا وهي ما زالت تهز رأسها باضطراب.

أخذ ينظر في أثرها والغضب يبدو عليه، فقالت فران تهدئه متوترة: «غرانت، لا يمكنك حقاً أن تلومها ما دامت لم تر جوليا منذ فترة».

ـ إنها لم ترها منذ ثلاث سنوات، ولكن حتى بدون نظاراتها يجب أن ترى أنك أطول منها بعشرة سنتمترات على الأقل، عدا عن أي شيء آخر.

ـ حسناً، أعترف أن الأمر كان محرجاً بعض الشيء، ولكن دعنا ننسى هذا فقد انتهى الآن، و...

تقاطعها متوتراً: «آه، كلا. لم ينته! بل ابتدأ لتوه... ابتسمي».

فعلت ما أمرها به وفي نفس الوقت ومضت أضواء الكاميرات عندما اشتم مراسلو الصحف الأخبار، فتركوا نجوم السهرة التي أرسلوا لتغطيتها. قال غرانت: «لا تجيبي أياً منهم».

فأبقت ابتسامتها وهي تحاول الخلاص منهم، متجنبة الأسئلة التي كانت تنهال عليهما من كل صوب.

ـ هل هذه السيدة زوجتك يا سيد ميرسيير؟ كم مضى على زواجكما؟ أين تقابلتما؟ كم مضى على طلاقك؟ أين هي زوجتك السابقة الآن يا سيد ميرسيير؟

تابعوا دون توقف وشعرت فران وكأنها صفعت وقد أذهلها خروج أسئلتهم عن الموضوع، شاعرة بالذعر من أن يفقد غرانت

سيطرته على أعصابه. إنه يتكلف التسامح، فهو يضحك رغم أنه، كما تعلم، كان يغلي داخلياً، ولكنه كذلك معتاد على التعامل مع الصحافيين، وبعد فترة تفرقوا غير راضين كلياً.

أطلق غرانت آهة خشنة وقال: «علينا أن ننتظر حتى الغد لنرى ماذا جعلوا منها، ودعينا نخرج من هنا ما دامت سنحت الفرصة».

عندما وصلا إلى البيت كان رنين التليفون يتعالى. رفع غرانت السماعة ثم أعادها، وحول الخط إلى آلة تسجيل المخابرات التي نسي فتحها قبل خروجه. لم يعلق على الأحداث التي مرت ولكنه بقي مستيقظاً وذراعه خلف رأسه بينما نامت فران.

عندما وصلت الصحف في اليوم التالي، قرأتها غير مصدقة. لقد استاءت أثناء الحادثة، ولكن ليس بقدر غرانت لأنها لم تستطع أن ترى ما أهمية ذلك لدى الناس ليثيروا كل تلك الضجة. قرأت ما كتبوه فأدركت أنه ملفق لإثارة فضيحة سيئة تجذب اهتمام القراء.

كانت هناك صورتان، الأولى لغرانت وجوليا تمثلهما كما خمنت، في نفس بهو المسرح الذي سبق ورأتهما فيه منذ سنوات، وبجانبها صورة أخذت الليلة الماضية. مضت لحظة لم تستطع هي نفسها تمييز الفرق بينهما. غرانت في بذلة السهرة، وهي وجوليا في ثوبين أسودين متشابهين. شعورهما الشقراء ممشطة إلى الخلف ومشبكة بدبابيس، أما التعليق تحتها فكان (أيتهما السيدة ميرسيير الحالية؟) ثم تتابعت عدة تخمينات.

ألقت بالصحيفة جانباً شاعرة بالاشمئزاز، وأخذت الثانية وهي ترى غرانت يحدق إليها باكتئاب، وحالما فتحت الصحيفة أدركت السبب.

في صفحة الشائعات، ظهرت أيضاً صورتان تجذبان الانتباه إلى التشابه بين المرأتين، ثم صورة أخرى تمثل غرانت وجوليا في مطعم

يتبادلان الابتسام. حتى قبل أن تقرأ فران المكتوب تحت الصورة، أدركت أنها أخذت حديثاً.

كان مكتوباً: (وضع غريب لفت انتباهنا.. غرانت ميرسيير، الشخصية التلفزيونية المعروفة والكاتب المسرحي، تزوج في حزيران الماضي من السيدة ميرسيير الثانية، وهذه الصورة أخذت له بعد ذلك بأسبوعين مع السيدة ميرسيير الأولى يتناولان العشاء في مطعم) وتساءل كاتب المقالة عما يوجد في الجوّ.

أخذت فران تفكر ذاهلة ثم قالت محاولة السيطرة على صوتها:

ـ هذه الصورة أخذت بعد زواجنا؟

ـ نعم. كان عليّ أن أخبرك أنني قابلتها، لكنني حينذاك وجدت عدم القول أسهل، ولم أعلم بأخذهم صورتنا.

قالت بجمود: «وهكذا ظننت أنني لن أعلم بالأمر».

ـ ليس هناك أمر عليك أن تعلميه، اسمعي، سأخبرك الآن بما كان عليّ أن أخبرك به من قبل. لقد اتصلت بجوليا لأخبرها بزواجنا...

فقاطعته بلهجة لاذعة: «يا للتهذيب».

ـ تباً لذلك يا فران، هل ستسمعين؟ كنت أعلم أن هناك دوماً إمكانية حدوث ما حدث الليلة الماضية، وهكذا أردت إنذارها حتى تكون مستعدة لذلك. لا بد أن الصحفيين الآن على بابها.

قالت فران ببرودة: «يمكنها القول لهم (لا أدري)».

ـ وماذا عن السؤال الذي يعقب قولها ذاك (ما هو شعورك إزاء هذا يا سيدة ميرسيير؟ أتظنين أن الشبه الذي بينك وبين زوجة زوجك السابق يتضمن أية دلالة؟ أتحبين أن تعطينا رأيك يا سيدة ميرسيير؟).

خفضت بصرها إلى الصورة مرة أخرى وقد تبددت صدمة النظرة الأولى عندما أدركت أنها تصدقه. كانت فران واثقة من أنها لا يمكنها

الخوف منها من ناحية الخيانة الزوجية الجسدية، ولكن ليس الخيانة الجسدية ما كانت تخاف منه، وإنما عدم الإخلاص الذهني له سلطة أكبر للتحطيم ويمكنه أن يحدث نفس الشعور بالغيرة.

فهمت الآن السبب الحقيقي لإصراره على سريّة زواجهما، فهو ليس كما فسّره بأنه لا يريد من أحد اقتحام خصوصياتهما.. ولم يخطر لها أن التشابه بينها وبين جوليا هو شيء تهتم به الصحافة.

قالت تشير إلى الصورة في المطعم: «هذا بعد زواجنا، لماذا لم تخبرها قبله؟»

ـ حاولت ذلك ولكنها كانت مسافرة.

ـ لهذا إذن أردت كتمان زواجنا؟ لكي تحمي جوليا.

فتردد: «ليس جوليا فقط، أنتما الاثنين».

فقالت بحدة: «لا أتذكر أنك نبهتني لما قد يحدث».

ـ لم يكن ثمة حاجة لذلك. كنت مستعداً للتصرف ولم أجد فائدة من تحذيرك من شيء قد لا يحدث أبداً.

أخيراً قالت: «لا بأس، إنني أقبل أنك أردت إنقاذها من مواجهة موقف غير مستحب، ولكن مخابرة تليفونية تؤدي نفس الغرض، فهذا ليس بحاجة إلى عشاء ليلي على ضوء الشموع».

قال بنفاد صبر: «كان ذلك في السابعة والنصف في مطعم صغير وحفلة تقام على بعد خطوات منه، وليس جلسة شاعرية. ما حدث هو أنني عندما اتصلت بها كانت ستأتي إلى لندن في اليوم التالي، فقلت لها إنني أريد رؤيتها بعد انتهاء عملي في الاستديو. تعشينا أثناء حديثنا عن الأمر، وبعد ذلك وضعتها في تاكسي عادت بها إلى فندقها».

سألته ساخرة: «حتى بدون قبلة تحية المساء المعتادة؟»

أصاب سؤالها الصميم فأغمض عينيه متعباً: «كنا متزوجين مدة

ست سنوات».

حدقت فران إليه غير مصدقة. قال ذلك دون أدنى شعور بالذنب فكل اهتمامه كان منحصراً في جوليا، أرادت أن تغضب وتصرخ به وتنفّس عن غيرتها بقبضتي يدها ولكنها لم تجرؤ، كما أن ذلك لن يفيدها. فقالت بصوت خشن: «كل هذا الإهتمام قد يكون جعلها تندم لطلاقك، خصوصاً وأنها لم تتزوج بعد».

هتف وهو يضرب الصحيفة أمامه براحته: «اسمعي بحق الله! إنك رأيت هذه القذارة. وكله ثرثرة قذرة، إنهم لا يقولون شيئاً وإنما يدفعون مخيلة القارئ إلى استنتاج الفضائح. ولا شك أن الصحافة ستتسكع حولنا.. ولا تلبث القضية أن تهمد، تنزعج جميعاً ولكن لا أحد يصيبه الضرر. كنت بانتظار ذلك وكانت أجوبتي جاهزة، ولكن كان عليّ أن أتأكد من أن جوليا لديها ذلك أيضاً. قلت بنفسك إن ما حدث لم يكن ذنبها».

بللت فران شفتيها بلسانها: «ربما أنا غبية، ولكنني لا أستطيع التفكير في أي سؤال مزعج إلى هذا الحد».

ـ ألا يمكنك؟ إذن حاولي أن تفكري في أسئلة كهذه (هل حدث أن قابلت زوجة زوجك السابق يا سيدة ميرسيير؟ أيمكنك إخبارنا أين التقى بها؟). أنظري ما يقودك إليه الخيال من أجوبة لمثل هذه الأسئلة.

ـ ولكن.. ولكنهم لن يجدوا شيئاً.

أجاب متحدياً دافعاً الصحيفة بعيداً باشمئزاز: «أثبتي ذلك، أنظري ما استطاعوا استنتاجه».

سكتت فران. فإذا اكتشفوا أنها عاشت فترة على مقربة من غرانت وجوليا، فالتعريض سيكون واضحاً، ولكن إذا كان التلميح إلى أن زواجهما انهار بسبب علاقة له مع فتاة مراهقة، فسيدمرهما

هذا هما الاثنين... لكن جوليا هي مدار اهتمام غرانت.

كان غرانت يذرع أرض المطبخ ببطء ويداه في جيبي روب الحمام. سار إلى النافذة وأزاح الستارة ثم أعادها وهو يشتم: «الأفضل أن أغير ملابسي، هنالك البعض منهم في الخارج ولن يذهبوا قبل أن أتحدث إليهم».

أومأت، وعندما وصل إلى الباب، قالت: «ما زلت لا أفهم كيف يمكن أن يؤثر هذا على جوليا، نحن اللذين سنتأثر بذلك إذا حاولوا القول إنه كان بيننا علاقة، ثم إنها تعلم أن لا أساس لذلك. فأنا لم أرك بعد زواجك إلا من بعيد.. ولم أحدثك بكلمة قط، ولهذا لا أدري ما الذي سيجعلها تستاء».

بدا صوتها حتى في أذنيها حاقداً، ما جعل غرانت يلتفت إليها:

ـ لا تكرهي عمل الخير يا فران، تقولات الصحف تلك ستشعرها بالمذلة والحرج، كما إنني غير مسرور بدوري كذلك.

فردت بمرارة: «والمفروض أن لا أشعر أنا أيضاً بالمذلة، ليس لي الحق في الاستياء إذا نظر إليّ كل إنسان وكأنني... تعديت على زوجتك الأولى، ويجب أن أتعزى بأنني الباقية معك على الأقل. ولكن بعد تلك الصورة يبدو أن هناك شك بالنسبة لذلك».

ـ آسف لهذا، من سوء حظنا أن رأونا معاً.

لاحظت فران غير مصدقة أنه لم يكن يعتذر لأنه خرج مع جوليا وإنما لأن هذا شاع بين الناس. ثار غضبها فجأة، وعندما رأى ذلك قال: «بالله عليك يا فران، لا تكوني غيورة، إنك تعلمين أن ليس هناك سبب لذلك».

إنها تعلم طبعاً، فقد مرت ثلاث سنوات كان بإمكان جوليا أن تعود إليه أثناءها ولكنها لن تفعل، حتى ولو فكرت الآن في ذلك، فإن أخلاقها العالية تمنعها من ذلك حالياً. ولكن غيرتها بقيت موجودة

فقالت لتغطيها: «الآخرون يرون أن معي الحق في أن أغار».

ـ قلت إنني آسف لذلك، صحيح أن كل شيء كان أفضل لو أنه جرى بواسطة التليفون. لكنني حرصت حينذاك على الجلوس معها لكي أطمئن إلى أننا سنقول نفس القصة التي تعرفها الصحافة وهي أنني عرفتك حين أغمي عليك في الحفلة، ولا نريد أن يتقبوا أكثر من ذلك.

قالت بجفاء: «أظنك على حق، ولكن أي شخص في القرية يمكنه أن يخبرهم أن لا شيء مهماً كان بيننا».

ـ ليس من الحكمة الاعتماد على هذا.

أجفلت، فقال بهدوء: «الناس في القرى يتكلمون على الدوام، إنك تعلمين هذا يا فران ومن الأفضل لنا أن لا نثير هذا الأمر».

سكتت وقد احمر وجهها، وما لبثت أن شعرت بالارتياح عندما رن جرس الباب، فقال بضيق: «تجاهلي هذا، وسأذهب لرؤيتهم خلال دقيقة».

وتركها تحدق في أثره.

تملكها خزي بالغ، كانت تعلم أنه ترك قريته هرباً منها، ولكن لم يخطر ببالها قط أن الآخرين ربما لاحظوا ملاحقتها له.

أخذت تحدق في قهوتها محاولة أن تنبذ شكوكها التعسة. ولكنها وجدت نفسها تتساءل عما إذا كان غرانت يقابل جوليا باستمرار بعد زواجهما دون أن يلاحظ أحد أو يراهما مصور.

كانت تعلم في أعماقها أنه لم يفعل هذا، ولكن الاضطراب والصدمة يتملكانها. فغضب غرانت من غلطة تلك المرأة براندا ليس لأجل تأثير ذلك عليها هي، بل على جوليا. أما هي، فران، فبالدرجة الثانية، وأعادت إليها هذه الفكرة كل شكوكها. وعادت عيناها بالرغم منها إلى الصورة المأخوذة في المطعم. ما الذي تمتاز به جوليا

لتستحق كل ذلك الحب والوفاء؟ ولماذا كانت الكاميرا من الرقة بحيث أبرزت تلك الرقة في عيني غرانت وهو يبتسم لها؟

عندما عاد إليها، كانت ما تزال جالسة في نفس الوضع أمام المائدة. حدق إليها مقطباً جبينه وقال: «ابتدأت أفكر في أن من الأفضل أن نعود إلى القرية الآن. أريد أن أجلس للكتابة دون إزعاج من أحد».

كان يفكر في ذلك منذ حين، وكانت موافقة تماماً في البداية ولكن احتمالات ما قد يحدث ملأتها ذعراً الآن، فهتفت بسرعة:

ـ آه، كلا.

وعندما رأت دهشته، حاولت تخفيف قولها: «ألا يبدو هذا وكأننا هاربان؟ وأن لدينا فعلاً ما ينبغي إخفاؤه؟»

ـ بصراحة، لا يهمني مثقال ذرة ما يبدو ذلك. والآن، ألا تريدين الذهاب؟

فأرغمت نفسها على الابتسام: «طبعاً أريد ذلك ولكنني لا أريد أن يظننا أحد هاربين، وسيبدو ذلك غريباً بعد أن قبلنا عدة دعوات لحفلات. كما أن هناك محاضرة عليك أن تلقيها؟»

ـ يمكنني العودة لأجلها. أتمانعين في عدم حضور الحفلات؟

تذكرت الحفلات المملة التي كانت تحضرها مع سيث وكان عدم حضورها يريحها، ولكنها قالت بمرح: «كنت في الواقع أنتظرها بشوق وذلك لأعرض مجوهراتي على الناس، وبجانب ذلك لم يسمح لي الوقت للتعود على كوني زوجة غرانت ميرسيير الكاتب المسرحي الشهير. إن تألقه ينعكس علي كما تعلم، فأجد كل شخص بالغ اللطف معي».

سرعان ما أدركت خطر قولها هذا حتى قبل رؤيتها عبوسه، كان يسخر من ربات الحفلات اللاتي يعتبرن وجوده مجرد نجاح اجتماعي

لهن. إنه يمضي الساعات يتحدث في المشاكل مع زملائه الكتّاب والفنيين في التلفزيون، ولكنه يتضايق من الاحتفاء به.

قال: «حسناً، سننسى ذلك فترة، ولكن لا تقبلي دعوات أخرى».

كان صوته جامداً، ولكنها أحست بخيبة أمله فيها. ثم قال يثبت ذلك: «لا يمكن أن تكون الحياة كلها لعب يا فران، عليّ أن أعمل أيضاً، ومع أن لديّ مدير مزرعة كفوأ، فما زال هناك أشياء أريد أن أراها وأناقشها معه».

عندما خرج، جلست لحظة. لقد ابتدأ كل شيء بسبب مقابلة غرانت لجوليا دون علمها، وتساءلت بيأس عما جعل ذلك ينتهي بأنها هي المخطئة.

بقي التحفظ بينهما طوال الأيام التالية، ولكنها كانت تعلم أن السبب في ذلك لم يكن غرانت وحده. فقد كان الشرود ينتابه أثناء التفكير في المسرحية التي يقوم بكتابتها، ولعل هذا هو السبب الآن. خرجا عدة مرات، إحداها لإحدى تلك الحفلات، فأمضت وقتاً ممتعاً حيث قابلت صديقة كانت تحبها وفقدت الاتصال بها. كانتا ابتدأتا العمل في الإعلانات معاً، ولكن مارغوت ارتقت من الإعلانات التجارية في التلفزيون إلى التمثيل، وأصبحت الآن ناجحة.

قدمتها فران إلى غرانت بابتهاج، وتملكها الزهو وهي تراها تنظر إليه بحسد قائلة: «بإمكاني أن أستبدله بمهنتي في أي وقت».

فقال غرانت ببطء: «إن الزواج من كاتب لا يحتوي على المجد كما تظنين، فالناس يأخذون عنا فكرة خاطئة، خصوصاً إذا كتبنا للتلفزيون. إنهم يظنوننا نمضي أوقاتنا مع الأثرياء والمشهورين بينما الحقيقة أننا مملون للغاية، أليس كذلك يا فران؟»

فأجابت مترددة: «أحياناً. رغم أن هذا ليس بالسوء الذي

تصوره».

ـ ولكنها ليست حياة بهيجة.

نظرت إلى ابتسامته الساخرة فقالت بضيق: «ربما هذا صحيح، كله يعتمد على ما تعتبره بهيجاً، وعلى كل حال، كثيرون لا يعتبرون ذلك النوع من الحياة ممتعاً».

كانت مرتبكة وابتدأت تشعر بالخوف. وإذ رأى ضيقها عاد يبتسم لها، ثم التفت إلى الفتاة الأخرى يقول: «وهكذا لا تستبدليه بمهنتك قبل أن تعلمي ما ستحصلين عليه بالمقابل، اسألي زوجتي».

أفسدت هذه الحادثة الصغيرة بقية السهرة بالنسبة إلى فران، وتملكها الارتياح وهما يغادران. بقيا صامتين في التاكسي ولكنه في البيت وضع يده حول كتفيها فأبعدتها وقالت ساخطة:

ـ ما الذي قصدته من تلك التفاهات التي قلتها لمارغوت؟

ـ ماذا يمكن أن تكون غير نصيحة صداقة؟

ـ جعلت الأمر يبدو وكأنني تزوجتك لأجل الحياة التي كنت أتوقعها.

ـ الاختلاط بالأثرياء والمشهورين؟ ولكن ألا تستمتعين بها يا حبيبتي؟ دوماً كنت تؤكدين لي ذلك حينما كنت أسألك، حتى إنك لم تشيري مطلقاً إلى أنك لا تريدين الذهاب إلى تلك الأمكنة اللعينة.

فقالت بصوت مختنق: «إنني لا أستمتع بها في الواقع. ولكنني فكرت في أن عليك أن تذهب إليها، وهكذا حاولت أن أجعلها مفيدة لك. وإذا شئت الحقيقة، غالباً ما يتملكني فيها السأم».

فقال مفكراً: «آه، الحقيقة.. ماذا عسى أن تكون؟ هل هي ما أخبرتني به من قبل أم ما تقولينه الآن؟ إذن فقد خدعتني. كان وجهك يشرق في بعض حفلات العشاء تلك، وإذا كان الرجل مليونيراً فهو يبدو رائع التألق».

ـ لأنك بحاجة إلى أصحاب الملايين لتمويل مسرحياتك. هل كنت تفضل أن أكون قليلة الأدب معهم؟

فرفع حاجبيه: «أتعنين أن كل ذلك لمصلحتي؟»

فتمتمت: «نعم، ولكنني لا أظنك تصدقني».

ـ ظنك صحيح تماماً، أردت أنا الذهاب إلى القرية إذا كنت تذكرين، ولكن كلا. هناك بعض الحفلات علي حضورها أولاً، كما أن عليك أن تعرضي مجوهراتك، ولا شك أنك لن تدعي أن ذلك لأجل مصلحتي كذلك.

نظرت إليه بعجز فرأته ينظر إليها ساخراً.

قال متحدياً: «حسناً؟»

قالت بعد برهة: «كلا، إنني لا أدعي هذا ولكن عدم رغبتي في الرحيل ليس بسبب الدعوات تلك».

نظر إليها متشككاً: «أحقاً يا حبيبتي؟ تؤربني إذن عما هو السبب».

أشاحت بوجهها هازة كتفيها: «لا شيء مهم الآن».

ـ هذا أسوأ جواب لهذا السؤال.

وسار نحو مكتبه مبتعداً.

لم تره فران بعد ذلك حتى وقت الفطور، كانت تعلم أنه لا بد رقد على الأريكة، ولكنه كان قد اغتسل وحلق ذقنه. كانت تصرفاته طبيعية إلى حد جعلها تتساءل كم ما زال يذكر من الليلة الماضية، ولكنها تعلم أنه لا يمكن أن ينسى فما زال عقله يقظاً.

اتصلت بها ساشا حوالي المساء بعد صمت طويل. كانت فران تعلم أنها وجدت عملاً في روما حيث ذهبت لعرض مجموعة من أزياء الربيع الجديدة، ولكن ذلك حدث منذ أسابيع. وعندما سمعت صوتها، قالت فران بجفاء: «يا له من تنازل».

ضحكت ساشا قائلة: «لقد تعرفت إلى ذلك الإيطالي الرائع، فقررت أخذ إجازة قصيرة. هنالك رسالة لك هنا. فلماذا لا تأتين لأخذها ثم نتبادل بعض الأحاديث النسائية؟».

كان غرانت يعمل في مكتبه وكانت قد جهزت وجبة طعام باردة وهكذا قالت: «سأكون عندك بعد نصف ساعة».

ـ جميل يا حلوتي، وسأحدثك بكل الأخبار.

دخلت فران على غرانت في مكتبه تخبره وهي ما زالت باسمة، فنظر إليها قائلاً: «هذه ابتسامة لم تكن متوقعة مطلقاً».

أجابت: «عادت ساشا وأنا ذاهبة إليها لأسمع حديثها عن جمال روما في الربيع وعن رجل إيطالي معيّن».

ـ خذي تاكسي إذن فمن الصعب أن تجدي موقفاً لسيارتك هناك، ويمكنني إحضارك عندما تريدين العودة.

قالت: «لا حاجة بك للمجيء لأخذي».

ـ لا إزعاج في ذلك، اتصلي بي عندما تكونين جاهزة.

ورمقها لحظة بنظرات غامضة.

خرجت شاعرة بشيء من الانكماش، متسائلة عما إذا كانت مخيلتها صورت لها أنه لا يريدها أن تذهب. ربما ظن أن رؤيتها لساشا قد توقظ حنينها إلى حياتها الماضية، وشعرت بالاستياء. كان حساساً إزاء الفرق بين عمريهما، ولكن بما أنها اعتادت الاختلاط بالناس الأكبر سناً الآن، لم يعد هذا يزعجها. ثم إنه لم يكن في حياتها الماضية ما تريد العودة إليه.

استقبلتها ساشا بحماسة قائلة: «لنعد القهوة أولاً، وبعد ذلك نتحدث».

وافقتها فران وهي تأخذ دون وعي رسالتها وتدسها في حقيبة يدها. كانت الشقة غارقة في فوضى لم تعرفها من قبل. لا بد أنه

كان لها بعض التأثير أثناء سكنها فيها.

جلست ساشا على أريكة ضخمة مرتدية ثوباً قرمزياً صارخ اللون، ثم قالت: «دورك أولاً يا عزيزتي، كيف رأيت الحياة الزوجية وزوجك الطويل الوسيم البالغ الحيوية؟»

هزت فران كتفيها باسمة: «إنه طويل وسيم بالغ الحيوية والحياة الزوجية رائعة، فلنسمع أخبار رجلك الإيطالي».

أجابت ساشا بنشوة: «كان يجب أن تريه يا عزيزتي. إن له أجمل عينين بنيتين براقتين رأيتهما، وله جسد كالتمثال، إنه متلهف لكي أتزوجه، أليس هذا رائعاً؟»

وافقتها فران على قولها وهي تحثها على مزيد من الوصف، وعندما سكتت ساشا أخيراً سألتها: «ما هي المشكلة إذن؟»

ـ ليس لديه قرش واحد باسمه، وكل ما سأكسبه سيذهب في محاولة الإبقاء على قصره.

ضحكت فران بينما عادت ساشا تقنعها: «والآن هيا أخبريني عن كل ما حدث».

تحدثتا بعض الوقت. لم تتحدث فران كثيراً. لم تتحدث عما ذكرته الصحف إذ أن ساشا لم تعلم شيئاً عنه حيث إنها كانت مسافرة أثناء ذلك. كان الحديث قد بدأ ينتهي وفران تفكر في الاتصال بغرانت عندما رن جرس الباب.

لوت ساشا أسارير وجهها وهي تنهض لتجيبه، ولكنها هتفت عندما فتحت الباب: «ما أجمل هذا! ادخلا وانظرا من لديّ هنا».

نظرت فران فإذا سيث وزوجته ليبي يخلعان معطفيهما وهما يدخلان الغرفة.

كان بروز بطن ليبي ظاهراً ولا بد أن الدهشة بدت عليها لأن سيث قال ضاحكاً:

ـ لا بد أن هذا يشعر ليبي بالراحة.

فقالت ليبي: «ساورني الشك في البداية، ولكن بعد شهر أخبرت سيث. لا تزعجي نفسك بممازحته في هذا الشأن، فقد تعود على الوضع».

قال سيث: «نعم، هذا صحيح».

فقالت ليبي: «لا تنخدعي به يا ساشا حبيبتي، كم أتمنى فنجان شاي، فالقهوة ممنوعة عني وأنا أكاد أموت عطشاً».

أخذت تجاهد في الزحف إلى حافة الأريكة لكي تقف مرة أخرى، فمال سيث نحوها ثم رفعها من مرفقيها بسهولة. وعندما تبعت ليبي ساشا إلى المطبخ، ابتسمت فران له:

ـ هل فقدت خوفك من الأبوة؟

فقال: «تقريباً. إنها طيبة في الحقيقة، أو هذا ما تقوله أمها باستمرار، إنها تكوي الثياب جيداً، كيف الحياة معك؟ هل ابتدأ زوجك يضربك؟»

ـ كلا، ولكنه قد يبدأ بذلك إذا لم أتصل به حالاً.

قالت فران ذلك وقد خطر لها لأول مرة ماذا سيكون تصرف غرانت لو أنه وجد سيث هنا وتملكها القلق، من الأفضل أن تنزل وتنتظره خارجاً. وتملكها الغيظ وهي ترى نفسها شاعرة بالذنب وكأن لديها ما تخفيه، وتحرك في داخلها شعور بالثورة. إنها المرة الأولى التي تخرج فيها وحدها في الليل، بينما غرانت تركها عدة مرات مصدقة كلمته أنه سيكون حيث أخبرها.

أخذت تنهض عن كرسيها، ولكنها عادت فجلست تستمع بتسلية إلى ما يدور من حديث في المطبخ.

وبينما كانوا يتحدثون، استسلمت ليبي للنوم، وبعد برهة رأتها ساشا فرفعت رأسها بدهشة فقال سيث ضاحكاً: «لا بأس، فهي تفعل

ذلك على الدوام. ولكن الوقت تأخر بنا ومن الأفضل أن أوقظها».

نهض واقفاً، بينما أدركت فران بذهول أن الوقت منتصف الليل تقريباً. لا بد أنها أخطأت معرفة الوقت عندما نظرت إلى ساعتها آخر مرة، وشعرت بالارتياح وهي تفكر في أنه عندما يأتي غرانت، سيكون سيث قد خرج. ولكن، في هذه اللحظة، إذا بجرس الباب يرن مرة أخرى، وبإحساس بالكآبة، شعرت بأن القادم هو غرانت.

* * *

٧ ـ حب يحطم القلب

أدخله سيث فوقف في العتبة يجيل نظراته بين الحاضرين ثم في أنحاء الغرفة دون أن يعبأ بالابتسام.

نظرت فران هي أيضاً فرأت كيف يبدو المكان. دخان سكائر وإحدى تسجيلات ساشا الموسيقية تملأ الجو. كانت هي أيضاً تدخن وهذا ما لم تفعله منذ شهور، ولكن سيث قدم إليها سيكارة فقبلتها، لأنها أرادت أن تدخن كما اعتادت مثله هو.

قال غرانت: «رأيت الوقت قد تأخر فجئت لآخذك».

بقي واقفاً حيث هو ينتظرها كما يبدو، فقالت فران بسرعة:

ـ تعال واجلس لحظة، لا يمكنك أن تأتي وتذهب دون أن ترتاح، كما أنك لم تتعرف إلى زوجة سيث ليبي، أليس كذلك؟

كانت تثرثر، فانتبهت إلى التوتر في صوتها. أدركت أنها خافت من أن يقول غرانت كلاماً جارحاً فيفسد على الآخرين هذه السهرة البريئة. تملكها الارتياح وهي ترى الخطوط حول فمه يخف توترها. واستجابة للضراعة الخفية في صوتها، قبل التعارف، وبعد ذلك أخذ يتحدث إلى سيث وبدا الارتياح على فران وهي تراهما منسجمين يتحدثان في تأثير الزواج على حياتهما.

ـ أتظنهن يدركن كم هن محظوظات بالإمساك بنا؟

قال سيث ذلك وهو يشير إلى زوجته ليبي. وفاتته النظرة الساخرة في عيني غرانت وهو ينظر إلى جسم ليبي المتضخم قائلاً بسخرية:

ـ آه، إنني واثق من أن ليبي تعلم.

فاصر سيث بقوله: «نعم، ولكن عليك أن تذكرهن بذلك دوماً، وإلا فسيدأن باعتبارك شيئاً مسلماً به. من المؤكد أنك جئت إلى فران في اللحظة المناسبة لتساعدها على الوقوف على قدميها.. أتصحك بإخبارها كل يوم عند الفطور كم هي محظوظة».

فقال غرانت بتيقظ مفاجئ: «ماذا تعني بأنني جئت إلى فران في اللحظة المناسبة؟»

فقال سيث بصراحة هازاً رأسه بحزن:

ـ ما أغرب هذا العمل، فأنت ترى فتاة بشعة تأتي لهذا العمل مع ذلك يقبل عليها الحظ فترى صورها كالأحلام، ثم تأتي فران فتنظر إليها فتراها تملك كل شيء: جمال رائع ملامح بديعة ولكن صورها كالشمبانزي.

فقالت ساشا غاضبة: «لا أستطيع الصبر على هذا يا عزيزتي، قولي له أن يسكت».

ولكن فران لم تستطع ذلك وقد أخرسها الخوف من كارثة وشيكة الوقوع وهي ترى غرانت يلاحق الموضوع بهدوء: «أظنك أخبرتني بأن بإمكانها الحصول على عمل متألق».

ـ آه، كان بإمكانها ذلك، كان يمكن أن تكون في القمة الآن لو أنها عملت بنصيحتي وخلعت بعض ملابسها منذ البداية. كنت سأكسب الألوف من العشرين بالمئة حصتي. ولكنها غيرت رأيها بعد فوات الأوان، وطبعاً أنهت تلك العملية عملها فليس بالإمكان عمل شيء لإخفاء أثر جرح كهذا. هذا مؤسف لأنني واثق من أنني كنت على صواب. فبتلك المجموعة الأخيرة من الصور التي لدي كان بإمكاننا جعلهم يتقاتلون عليها».

ساد صمت متكهرب وهو يبتسم مستعيداً ذكرياته، ساحباً علبة سكائره، وأدركت فران أنه الوحيد في الغرفة الغافل عن جمود غرانت

المفاجئ المنذر بالشر.

صرخت بسرعة: «غرانت...».

ولكنه تجاهلها وقال بنعومة:

ـ أريد الصور تلك.

ـ هه؟

فكرر غرانت قوله بنفس النعومة المخيفة:

ـ أريد الصور تلك.. أريدها الآن.

انتبه سيث متأخراً لما يحدق به من خطر فقال محتجاً: «لا تأخذ فكرة خاطئة، فهي صور إعلانات يا رجل، أدوات حمام، أدوية لرائحة العرق، بانيو حمام، أدوية لإزالة شعر الساقين على الفور. أخبريه يا فران أنني أدير عملاً محترماً أرجوك، لست بائعاً متجولاً أبيع مجلات دعارة».

فقال غرانت بصوت كالجليد: «سأسمع قولها فيما بعد. ولكنني أولاً أريد تلك الصور، أين هي؟»

شعرت فران بأن التهديد البادي في صوته انتقل نحوها.

قال سيث متخلياً عن الدفاع: «هناك في مكتب الوكالة في الملفات، عليك أنت أن تقود السيارة لأنني متعب».

قالت فران شاعرة بالخوف عليه: «أعطني المفاتيح وأنا سأحضر الصور، فأنا أعرف مكانها».

لم يقل غرانت سوى: «كلا».

دون أن ينظر إليها، فوقفت جانباً خائفة من المضي في إثارة غضبه.

كانت تعلم أن ثمة سببين أثارا غضبه، الأول هو وجود تلك الصور وارتجفت وهي تتذكر غضبه عندما رآها مرة ترتدي ثوباً مكشوف الصدر وهذا وحده يكفي. والسبب الثاني أن الصور ما زالت

عند سيث الذي لولا عدم انتباهه لتراجع في نفس الوقت قائلاً إن الصور أتلفت، أو حتى ادعى أنه نسيها. ولكنه كشف عن أنها ما زالت موجودة وذلك بعد أربعة أشهر من إجرائها العملية... أربعة أشهر من انتهاء أي فائدة للصور.

رآه فجأة هادئاً رزيناً، تمنت لو أنه من الاتزان بحيث يفكر بتفسير مقنع، لأنها لم تستطع ذلك نفسها. لم يقل أحد شيئاً وهو يرتدي معطفه ويبحث في جيوبه ليتأكد من وجود المفاتيح. وعندما خرج مع غرانت، ساد الصمت إلى أن سمعا صوت سيارة غرانت تتحرك تحت النافذة، عند ذلك قالت ساشا بحذر: «أظنك ستلاقين بعض الصعوبات في بيتك يا حلوتي. إن سريرك القديم ما زال خالياً إذا شئت أن تدعي أعصابكما تهدأ، ثم تبحثا الأمر صباحاً».

أخذ قلب فران يخفق خوفاً ولم تجرؤ على النظر إلى ليبي. كانت واثقة من أن غرانت لا يؤذي امرأة أبداً جسدياً، ولكن من غير المحتمل أن يعامل سيث بنفس الشهامة. قالت:

ـ أشكرك لعرضك هذا عليّ، ولكنني أظنه سيهدأ عندما يرى مغلف الصور، ولا بد من أن يريه سيث بعض الصور الأخرى في الملفات فيدرك أنها صور مستقيمة تماماً.

فقالت ساشا ساخرة: «من المؤسف أن سيث لم يدرك حين فتح فمه الثرثار أن ما هو مجرد حديث تجاري بالنسبة إلينا، قد يبدو مختلفاً جداً بالنسبة إلى زوج لا علاقة له بالتجارة».

فتحت ساشا النافذة قليلاً، وجمعت منفضات السكائر وبعض الكؤوس وأخذتها إلى المطبخ، بينما جمعت فران وليبي البقية. وعندما مسحتا المناضد ونظمتا الوسائد، أصبح المكان لائقاً نسبياً وخالياً من الدخان. كنّ جميعاً ينصتن إلى صوت عودة السيارة، وعندما وقفت أمام الباب، حملت فران سترتها وحقيبتها: «أظن من

الأفضل أن لا يعود غرانت إلى هنا، آسفة لإفساد السهرة» وابتسمت لهما معتذرة.

منحتها ليبي ابتسامة باهتة متشككة، بينما قالت ساشا متصنعة المرح: «اذهب ذلك التنظيم والتنظيف سدى.. حسناً، اصرخي إذا احتجت أي عون يا عزيزتي، واتصلي بي حين تستطيعين».

أومأت فران وهي تسرع خارجة. قابلت سيث على السلم فسرها أن وجهه رغم عبوسه لم يكن عليه أثر لضرب أو تشويه ولم تجد الشجاعة للنظر إلى غرانت.

لم يقولا شيئاً قبل أن يصبحا في السيارة، عندئذ توقف قبل أن يدير المفتاح وقال آمراً بخشونة: «ابتعدي في المستقبل عن سيث بيرنستين».

تحرك بالسيارة قبل أن تجيب ولم تحاول هي الدفاع عن نفسها قبل أن يصبحا في الشقة، فقالت بيأس: «غرانت، إنني أعلم ما تظنه ولكنك مخطئ».

خلع معطفه وقد توتر وجهه هياجاً، ثم ألقى به إلى كرسي فانزلق إلى الأرض دون اهتمام منه: «أحقاً؟ ولكنك لا تعلمين ما الذي أفكر فيه، أليس كذلك؟»

ابتدأت تقول: «إن سيث ليس...».

ولكنه قاطعها ثائراً:

ـ لا أريد أن أسمع.

واستدار مبتعداً عنها ثم فرك رقبته بقبضته لحظة، ثم عاد يواجهها مرة أخرى وكرر بلهجة أكثر جموداً: «لا أريد أن أسمع، لم أسألك قط عنه ولا أريد السؤال الآن.. فأنت ستنكرين ذلك على كل حال. ولكن ليس هناك رجل، حسب علمي، يحتفظ بصور زوجتي دون سبب غير إرضاء ميوله الخاصة، وأنت تعلمين هذا كما أعلمه، لهذا

ابتعدي عنه لمصلحته كما هي لمصلحتك».

ثم اتكأ على رف يراقبها متأملاً: «سألتني عن السبب الذي جعلني أتزوجك، ولكنني لم أسألك قط نفس السؤال، ويبدو أنه كان عليّ أن أفعل هذا. ولكن لم يكن من المحتمل أن تخبريني بأن ذلك لأنك كنت مفلسة ودون عمل...».

وأطلق ضحكة قصيرة جافة وقد لوى شفتيه باشمئزاز، فانفجرت فران تقول: «لم أكن مفلسة وكان لديّ وظيفة».

ـ وما هي؟

ـ كنت مستشارة في التجميل، أبيع مواد التجميل في متجر.

فقال ساخراً بصوت خشن: «أتريدينني أن أصدق أنك كنت راضية بذلك بعد نوع حياتك من قبل؟ حفلات افتتاح أفلام وغيرها، الاختلاط بالأغنياء، العيش في شقة باذخة، وإذا بك فجأة تصبحين مساعدة في البيع. كما أن زوجة عشيقك أصبحت حبلى فتركك، وإذا بي آتي في الوقت المناسب تماماً، أليس كذلك؟»

ـ كلا.

نطقت بهذه الكلمة صارخة تقريباً، فصدر عنه صوت يدل على الضجر وهو يضع كأسه على المنضدة بعنف: «لقد حرصت على أن لا أعلم بهذا حينذاك».

ـ لم يكن الأمر بهذا الشكل، لم أتعمد إخفاء شيء عنك.

أخذ يحدق إليها بعينين ضيقتين، ثم قال فجأة: «لا بأس، لماذا تزوجتني إذن؟»

ـ كنت...

وسكتت إزاء نظراته الساخرة. ليس ثمة أسوأ من هذه اللحظة للاعتراف بحبها له. وانكمشت وهي تفكر في سخريته وأخيراً قالت له: «أظننا نحن الإثنين لدينا نفس السبب».

ابتسم غرانت بجفاء: «إذن فلم يتغير شيء. فما زلنا نحصل على ما أردناه، كما أنك تقدرين قيمة المال يا عزيزتي، ولهذا لن أخيب أملك وأرجو أن لا يخيب أملي فيك».

سار نحوها فشعرت بالإثارة وهي ترى نيته في عينيه، فتراجعت مبتعدة عنه بصمت، ثم استدارت وانطلقت هاربة من الغرفة، لكنها أدركت غلطتها حين تمكن من الإمساك بها قبل أن تصفق باب غرفة النوم بوجهه.

قاومته في البداية مدفوعة غريزياً ضد سيطرته الجسدية عليها، لكنها ما لبثت أن تساءلت عما يدفعها إلى ذلك فاستسلمت.

ابتسم ناظراً إليها بعينين ضيقتين ممعناً التحديق في وجهها الملتهب، ثم تمتم: «ما أجمل أن تكوني مثلي ملتهبة العواطف يا عزيزتي».

* * *

أدارت فران رأسها تنظر إليه وقد انتابها الدوار، ثم أغمضت عينيها إزاء الانتصار المكشوف في ملامحه.

عندما جذبت اللحاف تغطي نفسها به، قال: «سنذهب إلى القرية في عطلة الأسبوع».

فاقشعر جسمها خوفاً. ولكنها هذه المرة لم تجرؤ على الاعتراض.

وفي اليوم التالي، وهي تفتح حقيبة يدها تخرج منديلاً، إذا بها ترى تلك الرسالة التي أحضرتها من شقة ساشا. وما إن قرأتها حتى اندفعت تتصل بساشا، وعندما لم تحصل على جواب، دفعها الذعر إلى الخروج لرؤية سيث.

عندما دخلت مكتبه رفع بصره إليها متأملاً، مرت لحظة بدا فيها عدم التصديق على ملامحه، ثم هب واقفاً وسألها غير مصدق وهو

يصفق الباب خلفها: «يا إلهي، أتراك تتمنين الموت؟ إن حضورك ينبئ بأنك خرجت عن عقلك».

ـ آسفة، ولكنني مرغمة على ذلك فأنا في مشكلة.

رفع يديه يفرك عينيه وهو ينهار على كرسيه: «لدي من المشاكل ما يكفيني، فقد تلقيت من استجوابات ليبي ما استمر حتى منتصف الليل، وآخر ما أريده فوق ذلك هو أن يطرحني زوجك أرضاً. إنه أثقل وزناً مني وقد ينتصر علي، فابتعدي عني يا فران وكلميني تليفونياً. والآن لمصلحتنا نحن الاثنين، أخرجي قبل أن يأتي فيراك».

فهزت رأسها: «إنه لن يفكر في أنني سأجيء».

ـ لو كنت مكانك لما جئت لأن ذلك يثبت له شيئاً... إنه قادم إلى هنا يا عزيزتي، فهو يريد «النكاتيف» من هذه الصور، وسيكون هنا خلال ساعة.

تحركت نحو الباب بشكل غريزي ثم عادت تفكر: «سأذهب بعد خمس دقائق يا سيث، إنني بحاجة إلى مئة جنيه حالاً، فهل يمكنك إقراضي إياها؟»

نظر إليها بحيرة ثم قال بارتياب: «إن زوجك غني، فلماذا تريدينها دون أن تجرؤي على طلبها منه؟»

انهارت على كرسي أمامه وهي تغالب دموعها:

ـ آه، يا سيث، لا يمكنني أن أطلب منه شيئاً حالياً! لقد سحبت من البنك أكثر من رصيدي وذلك قبل الزواج، ولا بد أنني جمعت المبالغ التي أنفقتها حين التسوق خطأ، ولم أعلم ذلك سوى الآن. لقد ذهبت الرسالة إلى شقة ساشا وكانت مسافرة بعد أن نسيت إعطاء البنك عنواني الجديد.

كان سيث ينظر إليها بارتباك فتابعت تقول بصوت معذب:

ـ لا يمكنني أن أجعله يعلم يا سيث، بعد الليلة الماضية وما يظنه

بي.

سألها: «ماذا حدث لعقلك؟ كنت فتاة ذكية تماماً، لن يضايق البنك السيدة غرانت ميرسيير لأجل مئة جنيه فخففي عنك. أعيدي إليهم نقودهم من مصروف البيت فيقبلون».

قالت متشككة: «لكن غرانت يعامل نفس البنك، ألا يجعله هذا يعلم بالأمر؟»

ـ إنهما حسابان منفصلان، فقط لا تتركي بيان البنك هنا وهناك وهذا كل شيء.

ـ نعم، نعم طبعاً، لم يحدث هذا معي من قبل كما أن تفكيري غير صاف هذا الصباح بعد تلك الصور...

فقال: «نعم، ولكن أتى لي أن أعلم أنك لم تخبري زوجك بها؟ لقد أذاقتني ليبي الجحيم... قلت لها إنني نسيت إخراجها من الملفات ولكنها لم تصدقني هي أيضاً، إنها تظن أنني ما زلت أحبك وهذا صحيح طبعاً».

ومنحها ابتسامة ملتوية.

قالت: «ولكنك لم...».

وسكتت حين تقابلت أعينهما.

قال: «كلا، لم يكن هناك فائدة فقد كان نفورك واضحاً».

نظرت إليه فران بضيق بالغ وهي لا تدري ما تقول، فقد جعلها تشعر بالذنب، وأي محاولة الآن لإقناع غرانت بأن سيث مجرد صديق عادي أصبح بدون جدوى.

أخيراً قالت: «يا ليتك لم تخبرني».

فهز كتفيه:

ـ ما دمت لم أحاول شيئاً بهذا الشأن من قبل، فلن أحاول الآن.

قالت بارتياح متلهفة للهرب: «هذا صحيح، ماذا قال غرانت

عندما جئتما إلى هنا الليلة الماضية؟»

ـ ألم يخبرك؟

هزت رأسها فرمقها باستغراب: «لم نتحدث كثيراً. عرض عليّ أن يكسر رقبتي وهذا رأيته عملاً زائداً قليلاً عن الحد. ولكن الوقت لم يكن مناسباً للجدل في هذا الشأن، وبعد ذلك أصبح الأمر منحصراً في حصوله على الصور».

قالت بتردد: «إذن لم تخبره بأن ما قلته في المستشفى حينذاك كان كذباً».

نظر إليها بدهشة بالغة: «لم أظن ذلك ضرورياً إذ المفروض أنه عرف ذلك بنفسه بعد الزواج».

فقالت وقد احمر وجهها:

ـ المسألة لسوء الحظ أنني أكثرت من ركوب الخيل أثناء صباي الأول، ما ترك تأثيره على ذلك.

دفن سيث رأسه بين يديه متأوهاً ثم عاد ينظر إليها عابساً:

ـ أظن عليّ أن أكون شاكراً لأنه عرض عليّ فقط كسر رقبتي. هنالك، يا عزيزتي، شيء يسمى (بالاتصال الشفهي) وهذا يبدو أنك لم تسمعي به. ولكنني لو كنت مكانك لحاولت تجربته.

قالت وهي تغالب دموعها مرة أخرى: «لم يعد يصدقني بعد الليلة الماضية، إنه يظنني تزوجته لأنه كان عليّ ترك عملي في الإعلانات ولأنني مفلسة، هذا هو سبب ذعري حين علمت بالمنة جنيه».

قال: «إذا لم تخرجي من هنا سريعاً فلن يهم ما يظنه».

جعلها تذكيره لها تنتفض واقفة بذعر، بينما قال بجفاء:

ـ اعملي معي معروفاً يا عزيزتي، وهو أن لا تعودي إلى هنا، زوجك أكبر وأضخم مني ويكفيني ليبي الآن.

خرجت فران وقد ملأها الندم لتوريطه معها. لقد بدت تلك الخديعة لا ضرر منها مطلقاً عندما طلبت منه القيام بها لأجلها، وإذا بالنتيجة تأتي بشكل لم يتوقعاها.

عندما وصلت إلى البنك رأت أن سيث على صواب في تخمينه ذلك أنهم لم يبدوا أي اهتمام، ولو كان لديها عقل لجنبت نفسها ساعتين من الانزعاج. دفعت لهم عشرين جنيهاً ثم عادت إلى البيت متوترة آملة أن يكون غرانت ما يزال خارج البيت فلا تحتاج إلى عذر تشرح به سبب غيابها.

كان بانتظارها فأدركت على الفور أن الأعذار لن تنفع. كان الغضب البالغ يبدو في وجهه وهو يقول بخشونة: «طلبت منك أن تبتعدي عنه».

شعرت باهتزازات غضبه تصل إليها وهي واقفة عند الباب. امتلأت نفسها خوفاً ولكنها تقدمت إلى الغرفة ببطء: «أردت فقط أن أعلم ما دار بينكما من حديث الليلة الماضية. لم يكن سيث يعلم أنني ذاهبة إليه».

نطقت بالجملة الأخيرة شبه ضارعة.

ـ من حسن حظه أنني أدركت هذا فلو كان يعلم ذلك مسبقاً لطلب من موظفة الاستقبال أن تغلق فمها قبل الزيارة، وهكذا سبقته أنا إليها.

بدا أن غضبه أخذ يتبدد إذ قال بازدراء:

ـ دعي الوغد المسكين وشأنه يا فران. أتركي فرصة لزوجته على الأقل حتى ولو لم يكن لديك شفقة عليه.

فقالت بغضب مفاجئ: «ذهبت فقط لرؤيته لعدة دقائق في مكتبه، وهذا لا يعني إغراء له لإبعاده عن ليبي».

فقال وقد عاد إليه غضبه: «أليس لديك تفكير؟ من الواضح أن

المسكين يحبك وأنه تزوجها مرغماً لأنه كان وعدها بالزواج. ما رأيك في شعورها وهي تعلم أنه ما زال يحبك؟».

بقيت فران لحظة صامتة لما لمسته من الحقيقة في كلامه وأخيراً قالت متلعثمة: «سيكونان على ما يرام، قد لا يحبها سيث كما تحبه ولكنه متعلق بها، ولن يفعل ما يؤذيها».

ـ وهل تظنين حقاً أن هذا يكفي؟ وأن الزواج سيبقى سعيداً رغم أن الحب من جانب واحد؟

تملكها الذهول للمرارة البادية في صوته فرفعت بصرها إليه بينما أشاح بوجهه عنها قائلاً بعنف: «صدقيني أن هذا لا يكفي، إن نتيجته الندم وتحطم القلب».

أخذت كلماته هذه تتردد في ذهنها أثناء استعدادها للرحيل إلى القرية. لم يكن غرانت، حينذاك، يشير إلى زواجهما، فكلماته المرة منبثقة عن تجاربه الماضية، ولكنها أيضاً تشير إليهما، لا يكفي أن يكون الحب من جانب واحد.

بعد انفجاره الغاضب هذا، ابتعد عنها ممضياً أكثر أوقاته في مكتبه ولكنه بقي ينام معها في الليالي. وذات مرة، بتشجيع من الظلام والتقارب حاولت أن تشرح له كيف أنها لم تذكر فشلها في العمل بالإعلانات لأنها لم تدرك أن لذلك أية أهمية أو علاقة بشيء، فقد كان ذهنها مركزاً على المستقبل.

عندما انتهت، قال غرانت: «ولكنك تعرفين أنني ظننت لديك عملاً ناجحاً».

ـ هذا لم يخطر ببالي قط فقد تزوجنا بسرعة لم تترك لنا مجالاً للحديث، وبعد ذلك لم نتحدث عن الماضي قط، كما أنك أنت أيضاً لم تتحدث عن الماضي.

نطقت بجملتها الأخيرة بشيء من التحدي.

اعترف قائلاً بعد لحظة: «هذا صحيح».

ـ هل تصدقني إذن؟

تحرك بقلق وهو يفكر، ثم قال: «إذا أردت مني جواباً قاطعاً، نعم أم لا، لا أستطيع. فالأمر غير واضح لي، حتى الآن ما زلت أحكم على الأحداث على ضوء ما تبدو لي. وسأتابع السير بهذا الشكل. وهكذا الأمر يعود إليك».

كان هذا أملاً ضعيفاً.. نصف أمل. إنه على الأقل لم يقل كلمة كلا بصراحة. قالت بهدوء: «هنالك شيء واحد لا يمكنني إثباته لك أبداً. ولهذا أطلب منك فقط أن تقبله بصفته الحقيقة، وهو أنني كنت قد قررت قبل العملية أن لا أشتغل بالإعلانات العارية».

ـ لماذا لا ما دام عملاً مربحاً تماماً؟

كان ثمة حدة في صوته فعبست: «أخشى أن هذا ليس السبب الوحيد الذي يسوّغ عملاً كهذا. فأنا أولاً لم يعجبني هذا العمل بالذات لأنه ممل وغير مستقر، وقد أرهقني الاحتراس من الرجال الذين كانوا يأخذون عني فكرة خاطئة. أصبح الأمر خارجاً عن نطاق المزاح فأدركت أن الأمر سيصبح أسوأ».

قال بصوت جامد: «لم تكوني محترسة تماماً بالنسبة إليّ».

شعرت بوجهها وعنقها يتوهجان فقالت: «لم أكن بحاجة إلى ذلك معك».

ـ أتعنين أنك كنت ستتوقفين عن ذلك قبل النهاية؟ إنها لعبة خطرة بالنسبة إلى الرجل، وأنا واثق من علمك بهذا.

ـ ليس من تجاربي الشخصية.

شعرت به يلتفت بسرعة إليها فتابعت بصوت منخفض:

ـ لم يذهب رجل معي إلى ذلك المدى من قبل.

أجفل بجانبها ثم قال بخشونة: «إن البراهين ضدك يا عزيزتي.

إنني أعلم أن الدلائل لا تكون موجودة دوماً، ولكنك لو كنت عذراء لما بقيت حتى الآن دون أن تخبريني. وعلى كل حال، لم أكن أتوقع أن تكوني كذلك».

أخذت تفكر بضعف في أن ليس ثمة فائدة من إضاعة وقتها في إقناعه، والأفضل لها أن تركز على ما يمكنها إثباته.

ولكن أملها الضعيف في النجاح تلاشى عندما اقتربت عطلة الأسبوع. يوم السبت سيذهبان إلى موطنهما عائدين إلى البيت الذي عاش غرانت فيه مع جوليا.. حيث يتم زوال الوهم من ذهن غرانت نهائياً عندما يصبح مرغماً على الاعتراف بينه وبين نفسه، بأنه حاز على نسخة أدنى مستوى لجوليا، أشبه بنسخة زائفة للوحة ما تبدو مقبولة في غرفة جانبية، ولكنها في الغرفة التي كانت تحتوي على الأصل تبدو زائفة رديئة الشكل.

كان الجو بارداً حين وصولهما، وصل غرانت بالسيارة إلى الباب لينزل الأمتعة ثم عاد بها إلى الكاراج خلف البيت. انتظرته فران على الدرجات فترة كارهة أن تحيي السيدة ماتيوس مدبرة المنزل وحدها، لكنها ما لبثت أن رأت ذلك جبناً منها فدخلت إلى الردهة.

أجفلت لنباح عنيف، وإذا بكلبين ضخمين يندفعان نحوها من خلف زاوية. كانا غريبين عليها، فتيين ناعمي الشعر، ولكن جاء في أثرهما الكلبة التي تتذكرها، بطيئة متصلبة القوائم. انحنت فران ناظرة بحذر إلى الكلبين الآخرين ونادتها. تقدمت «راف» دون رغبة وقد بدا الارتياب وعدم المودة على وجهها المسن. أخذت تتشمم يد فران لحظة ثم أشاحت بوجهها عنها دون اهتمام، واغرورقت عينا فران بالدموع... لم تعرفها «راف».

انتصبت واقفة متمنية لو انتظرت غرانت في الخارج، فرأت السيدة ماتيوس تنظر إليها من آخر الردهة تشابه «راف» في عدم

المودة. انتظرت فران مترددة لا تدري كيف تخاطبها آملة أن تبدأ المرأة بالكلام، ثم قالت: «مرحباً يا سيدة ماتيوس».

ردت عليها المرأة بعد فترة صمت: «مرحباً يا فران».

تعمدت بلهجتها الفاترة ومناداتها فران باسمها الأول أن تجرحها، فردت فران بلهجة عفوية: «سيكون غرانت هنا في أية لحظة، فقد أخذ السيارة إلى الكاراج، هل لك أن تصنعي لنا القهوة؟ كانت الرحلة متعبة حقاً».

أجابت المرأة: «سبق وأخذت صينية القهوة إلى غرفة الجلوس».

أحست فران بالحقد خلف كلماتها. لم تعرف مكان غرفة الجلوس وكانت المرأة تعرف هذا. لم تشأ أن تسألها فبقيت صامتة إلى أن قالت المرأة بنفس الحقد: «سأدلك على الطريق».

عند ذلك هزت رأسها: «كلا، سأنتظر غرانت».

حيته الكلاب بسرور. الكلبان الفتيان أخذا يتسابقان في أنحاء الردهة بجنون وإثارة، بينما أخذت «راف» ترتجف عند قدميه وهي تحرك ذيلها بعنف. قال ضاحكاً بعد أن ربت على رؤوسها:

- آسف يا مسز ماتيوس، كان يجب أن أحييك أولاً، كيف حالك؟

- بخير يا سيد غرانت. وضعت لك القهوة في غرفة الجلوس.

- حسناً، سأتناول القهوة إذن.

وتبعته فران إلى الغرفة حيث كانت الصينية موضوعة على منضدة خشبية مصقولة، ولحقتهما مدبرة المنزل، ولكن فران قالت برقة ولطف: «لا بأس يا سيدة ماتيوس. سأهتم أنا بالقهوة».

نظرت إليها المرأة بشكل أقرب إلى الغضب، وعندما خرجت قال غرانت: «حاولي أن تكوني لبقة قليلاً معها في البداية فالوضع بينكما غريب نوعاً ما حيث إنها كانت تعرفك منذ الطفولة».

ـ هذا جميل، ولكن ربما عليك أن توصيها بنفس الشيء.

كان جواب فران أكثر حدة مما قصدت، فرأت غرانت يقطب جبينه وهي تشيح بوجهها لتسكب القهوة. حملت فنجانها إلى النافذة ووقفت تنظر عبر الوادي إلى القرية في الجانب الآخر... كان بيت عمها ودكان الحدادة في العادة يبدوان من هنا، لكن المطر الخفيف والضباب طمسا المنظر. في لندن كان النهار غائماً، لكن الأشجار في الساحة خارج شقتهما لم تكن بالوحشة التي يبدو بها هذا المنظر من النافذة هنا.

أخذت تنظر في أنحاء الغرفة بدلاً من ذلك. لا بد أن الوسائد الحريرية المطرزة من عمل جوليا طبعاً، فاللون الفضي منسجم تماماً مع اللون الأزرق القاتم.

وضعت فنجانها بسرعة أحدثت صوتاً جعلت غرانت يلتفت إليها بسرعة قائلاً: «سأصعد بالحقائب إلى الغرف، ثم أجول بك في أنحاء البيت لتريه».

أومأت محاولة أن تبدي بعض الحماسة. لا بد أن بقية المنزل بجمال هذه الغرفة، وهو يتوقع منها أن تظهر السرور ببيتها الجديد. لم تستطع أن تقول له إنها لا تشعر بشيء وإن هذه الغرفة الأنيقة أشعرتها بالنفور وبأنها متطفلة وغير مقبولة هنا.

تبعته في الجولة بمعنويات هابطة شاعرة بجوليا في كل مكان. عندما وصلا إلى المطبخ وقفت في العتبة وأخذت تنظر حولها بصمت. هنا جلست منذ سنوات طويلة تشرب الكوكا كولا مع غرانت. كانت ذكرياتها من الوضوح وكأنها حدثت أمس، ولكن لم يبق شيء... كان هناك مجموعة عصرية متكاملة من التجهيزات مكان موقد قديم، كما أن الأرض الحجرية استبدلت بقرميد ناعم عسلي اللون. كما تدلت سلة نباتات بشكل جميل بجانب مائدة

الفطور. لا شك أن السيدة ماتيوس اعتنت بها بمحبة بالغة لأجل سيدتها الراحلة. أخذت فران تفكر في ذلك وهي تتأمل أوراق النباتات الغضة.

ازدادت البرودة في داخلها وهي تصحب غرانت في أنحاء الطابق الأول. كانت هناك أربع غرف أخرى عدا غرفتهما وغرفتي السيدة ماتيوس. كانت جميعها فسيحة مهواة مزخرفة بذوق جميل. اثنتان منهما تحتويان على سرر عالية القوائم.. وعلى الأرض سجادة سميكة باهتة وكانت ستائر النوافذ والجدار خلف السرير حمراء.

لم تستطع أن تقول شيئاً، وإلا فكلامها لا بد أن يكون توسلاً مذعوراً إلى غرانت لكي يبعدها من هنا... يعيدها إلى لندن، إلى أي مكان غير هذه الغرفة التي كان المفروض أن تشترك فيها مع غرانت، حتى إنها تصورت أنها تشم رائحة عطر جوليا في السجادة حيث كانت تجلس وتسير وتلمس الأشياء. الناس يدّعون على الدوام أنهم يشمون روائح عطرية في البيوت المسكونة. ولكن جوليا لم تكن ميتة كما أخذت فران تفكر بعنف، بل كانت حية.. حية وكأنها خرجت لتوها من هذا المكان في لحظة دخولهما.

نظرت إلى السرير فتملكها نفس شعور الغثيان الذي سبق وتملكها حين دخلت إلى غرفة النوم في الشقة قبل الزواج. فقط هذه المرة ستستلقي على هذا السرير مدركة أنها تستلقي على نفس الفراش ورأسها على نفس الوسادة، متصورة غرانت يعانقها بنفس الحرارة التي كان يعانق بها جوليا.

اندفع القيء إلى فمها فأسرعت إلى الحمام. وعندما عادت إلى الغرفة كان غرانت قد فتح الحقائب وأخذ يعلق ملابسه في الخزانة، فقالت له: «سأقوم بذلك بنفسي».

ـ شكراً، هناك عدة أشخاص عليّ الاتصال بهم ثم بعد ذلك أنظم

مكتبي.

لقد عاد إلى حياته الطبيعية في بيته وكأنه لم يغب قط عنه. وهو يستفقد جياده والمزرعة، يتحدث مع المدير وأصدقائه الآخرين، بينما هي... ما الذي ستقوم به؟ يمكنها أن تنزل إلى المطبخ وتساعد في إعداد العشاء، ولكن تلك المرأة لا تحتاج إلى مساعدة منها، وهي لن تفعل شيئاً سوى نصح قدرتها المتواضعة وعدم خبرتها أمام تلك المرأة التي تكرهها.

فتحت حقائبها ثم عبرت الغرفة لتفحص الخزانة الأخرى، وعندما فتحت أبوابها عبقت رائحة العطر بقوة. لم يكن هناك سوى بعض البطانيات موضوعة في درج، إنما الرائحة ليست منها. فقد كانت هذه يفوح منها رائحة النظافة والصابون ورائحة العطر لا يمكن أن تدوم ثلاث سنوات. زمّت شفتيها وعادت إلى الحمام حيث وجدت على الرف زجاجة عطر «أريج» مستعملة جزئياً. وفكرت بمرارة في أنها إشارة ترحيب صغيرة من السيدة ماتيوس.

عندما نزلت إلى الطابق الأسفل تبحث الكلاب مرة أخرى، وزمجر أحدها مهدداً حين حاولت التقرب منه. حتى الكلاب تشعر بالوفاء لتلك المرأة.

كان العشاء ممتازاً تلك الليلة. ذهبت فران لتهنئ السيدة ماتيوس على هذه الوجبة، ولكن هذا لم يخفف من العداء فعادت إلى غرفة الجلوس مكتئبة حيث كان غرانت يتابع برنامجاً تلفزيونياً. كان الكلبان الفتيان يجلسان عند قدميه بكل ارتياح، ولكن «راف» كانت تخمش ساقيه متوسلة أن يسمح لها بالصعود للجلوس بجانبه. وبعد برهة، قالت فران:

ـ لماذا لا تسمح لها بالصعود؟

مرّ بيده بأسى على الظهر الخشن: «إنها ستغطي الأريكة

بشعرها».

فقالت فران: «سيزيلونه بالفرشاة».

فقال محذراً: «إذا سمحت لها بالصعود فإن الآخرين سيصعدان أيضاً. ألا تمانعين؟»

قالت بدهشة: «ما دام لديك كلاب، فستتوقع شعر الكلاب. إنها الغرامة التي تدفعها مقابل سرورك بصحبتها».

استمر ينظر إليها عدة ثوان، ثم ابتسم فجأة وفرقع للكلبة بإصبعيه فقفزت هذه على الفور ثم أراحت ذقنها على ركبته وهي تتنهد راضية. رفع الكلبان الآخرين رأسيهما فقالت غرانت:

ـ تعالي إلى الجهة الأخرى حيث المكان ما زال خالياً.

كان يعرض عليها الصلح... أدركت ذلك وقد تملكها السرور فذهبت إلى حيث أحاطها بذراعه وأخذا يراقبان التلفزيون. اشتدت ذراعه حولها وكان هذا دليلاً على ثورة مشاعره، واعتادت أن تثور مشاعرها هي أيضاً بشكل مماثل.

ولكنها الآن لم تشعر بشيء، فقد كان ذهنها هناك في غرفة النوم، فوق السرير الباذخ بمفرشه الثمين، وجوليا وقد انتشر شعرها الطويل فوق الوسادة مستلقية حيث تستلقي هي نفسها تلك الليلة. كانت الصورة من الوضوح وكأنها رأت ذلك بعينيها، تشبثت هذه الصورة بأفكارها مشتتة كل صورة أخرى، ما جعلها تغفل عن تحبب غرانت إليها.

نظر إليها فجأة مستطلعاً: «هل أنت متعبة؟»

فأومأت: «الأسفار تتعبني على الدوام... لا أدري لماذا».

ـ اذهبي إلى فراشك وسأنهي أنا هذا البرنامج فقط، ثم أخرج الكلاب وأقفل الأبواب.

وافقته على ذلك، ولكنها صعدت السلم ببطء غير راغبة في

مواجهة ذلك الجوّ الغريب في غرفة النوم مرة أخرى. تمنت لو تنتهي هذه الليلة فهي متعبة كما شعرت بألم في ظهرها... إن كل شيء يؤثر عليها بشدة وعليها أن تتعلم كيف تتغلب على هذا التغير المفاجئ. كان الإغراء بأن تتصنع النوم حين مجيء غرانت قوياً ولكنها نبذته، ثم اكتشفت سبب ألم ظهرها وأدركت أن الظروف أراحتها من اتخاذ القرار. نظرت إلى أحد قمصان نومها وارتدته مبتسمة بسخرية ومن ثم صعدت إلى السرير.

وجدت الأمر أسوأ مما كانت تتصور، استلقت برهة ورائحة العطر الخفيفة في خياشيمها، ثم نزلت من السرير فجأة وفتحت النافذة فدخل الهواء البارد الغرفة، ولكن أي شيء كان أفضل من تلك الرائحة الخانقة. أطفأت النور محاولة الاستقرار، ولكن الصور تراءت لها في الظلام فعادت تنيره، ومن خلال النافذة سمعت غرانت ينادي الكلاب بهدوء للدخول. كان هذا جوّ الليل الذي سرعان ما ستألفه كما كان بالنسبة إلى جوليا. كلا، ليس بسرعة. فجوليا أمضت معه ست سنوات. هل ستشعر بالأمان عندما تصل هي إلى ذلك الهدف السحري؟ عندما تتجاوز السبع سنوات والثماني سنوات، هل يصبح بإمكانها أن ترتاح وهي تعلم أنها تجاوزت المدة التي أمضتها منافستها؟

كانت متوترة للغاية عندما جاء غرانت. نطق باسمها برقة فأخذت تتمتم تتصنع النعاس، ثم أخذت تستمع إليه وهو يستعد للنوم.

استلقى بجانبها، ثم قال بجفاء وهو يلمس قميص نومها الحريري:

ـ آه.. هذا توقيت سيء، فالليلة ينبغي أن تكون لتدفئة منزلنا.

فقالت بحدة: «دوماً التوقيت سيء بالنسبة إليك».

ساد صمت قصير قال بعده بجمود وهو ينقلب على ظهره:

«أحقاً؟ ولكن حتى الآن دوماً كنت أظننا مشتركين في الرأي».

تمنت لو تقطع لسانها لأجل جوابها اللاذع ذاك، فقالت بسرعة:

ـ آسفة، لم أكن أعني هذا. أشعر بشيء من الاكتئاب والحساسية، لقد آلمتني السيدة ماتيوس نوعاً ما، فهي لن تتقبلني أبداً مكان..

وسكتت بسرعة ولكنها رأت حاجبي غرانت ينعقدان وكأنها قالت: مكان جوليا.

ـ إنها هنا منذ عشرين عاماً وهي على وشك التقاعد، عليك أن تتسامحي معها. امنحيها وقتاً تتعود فيه عليك.

قالت محاولة تخفيف لهجتها المتصلبة: «لا بأس».

أخفت استياءها من أنها وحدها المفروض فيها التسامح، يبدو أن اهتمامه بالسيدة ماتيوس أكثر من اهتمامه بها. ثم أدركت أنها تفكر بشكل صبياني، ولكن نوعاً من الحزن بقي في نفسها وهي تحاول الاستقرار لتنام.

بقي هذا الحزن خلال الأيام التالية ومديرة المنزل تعاملها بازدراء مغلف. وكان في يدها شؤون المنزل وخادمتان نهاريتان تحت إمرتها التامة. أصرت فران على أن تغسل ثيابها وثياب غرانت بنفسها ولكن هذا لم يملأ سوى القليل من وقتها. وتفحصها الخزائن ومخزن الأشياء القديمة لم يفعل سوى تجديد تذكيرها بجوليا. اشتبهت في أن بعض الأشياء قد وضعت هناك عمداً: الصور، بعضها مع غرانت وبعضها تمثل جوليا وحدها، بعض البطاقات بخط يدها الواضح، أغطية وسائد لم تكتمل بعد تماثل تلك التي في غرفة الجلوس. تركتها حيث وجدتها ولكنها صممت على إخراجها من البيت في أول عطلة للسيدة ماتيوس.

أوصلها رالف السائق إلى بيت عمها عدة مرات لترى عمها

وزوجته. كانوا سعداء برؤيتها ولكنها لم تستطع الذهاب مرات كثيرة. وفي محاولة يائسة لتقاوم الملل أخذت تعلم نفسها العزف على البيانو. كان البيانو ضخماً مهيباً فشعرت بالجرأة وهي تتمرن. كان غرانت عازفاً جيداً وقد عبس للأصوات المتنافرة التي تعزفها ولكنها أصرت على المتابعة.

كان قد استقل القطار إلى لندن لكي يعود بسيارتها، فوقفت فران على درجات المنزل تلوّح له بيدها وهو يذهب مع رالف إلى المحطة. أخذت تنظر إليه وهو يقف في طريق ضيق يتكلم مع ساعي البريد ويأخذ منه رسائله من خلال النافذة المفتوحة، ثم يتابع الساعي صاعداً طريقه نحوها بتثاقل. كان هناك لها رسالة واحدة سمراء مستطيلة من البنك. فتحتها وألقت عليها نظرة شاملة ثم عادت تقرأها من جديد بحيرة. ومضت ثانية قبل أن تدرك أن اسم غرانت أعلى الرسالة، عند ذلك اكتسحتها موجة باردة. لو أن ساعي البريد أعطى رسالتها لغرانت ففتحها هذا دون أن ينتبه فسيرى حسابها اللعين ذاك وتاريخه الجديد. كل ذلك ليثبت شكوكه.

مضت لحظة منعها فيها الارتجاف من التفكير في أي شيء آخر. ثم إذا بمبلغ الحوالة الدائمة يلفت نظرها... قرأته غير مصدقة ثم تملكها الغضب. إذا كان غرانت يستطيع دفع مثل ذلك المبلغ إلى زوجته السابقة، فبإمكانه أن يدفع مبلغاً أكبر بكثير لزوجته الحالية. وكاد غضبها يستحيل إلى صدمة وهي تتذكر كيف طلب منها أن تحدّ من نفقاتها على ثيابها.

ودون تفكير، سارت إلى غرفة النوم وألقت بالبيان والمغلف في نار الموقد. وعندما عاد رالف، طلبت منه أن يأخذها إلى المدينة حيث اشترت ستائر باهظة الثمن لغرفة النوم. اختارت للسرير نفسه كلة بيضاء مختلفة عن كلة جوليا الحمراء.

ثم قررت عايسة أن الفراش أيضاً يمكنه أن يذهب وكذلك الملاءات والبطانيات والوسائد وغطاء السرير والمقعد الذي كانت جوليا تجلس عليه أمام منضدة الزينة. وإذا وجد غرانت نفسه مفلساً هذا الشهر نتيجة لكل هذا، على زوجته السابقة أن تنتظر فترة لنيل نقودها، ثم أضافت المجموع إلى حسابه دون وخز من ضمير. ووعد المتجر أن يرسل إليها المشتريات الأسبوع القادم، ثم استقلت تاكسي متحدية لقطع مسافة العشرة أميال التي تفصلها عن البيت.

لكن هذا لم يدم طبعاً. كان توتر أعصابها قد هدأ عند عودته بعد يومين، ووجدت نفسها تتفحص وجهه محاولة اكتشاف أي تغير في تصرفاته. قد تكون قضية حسابها تافهة بالمقارنة مع اكتشافها، ولكن عليها أن تلتزم الصمت.

بدا طبيعياً وهو يمنحها قبلة التحية، ولكن عندما كانا يتهيآن للنوم وخرجت من الحمام مرتدية قميص نومها مرة أخرى، قال لها بلهجة لاذعة: «إما أن تذهبي إلى الطبيب وإما أنك ستخبرينني بشيء».

احمر وجهها غير قادرة على مقابلة نظراته. منذ أسبوع وهي متشبثة بارتداء قمصان النوم متخذة ذلك إشارة خرساء له بالابتعاد عنها.

سألها: «ماذا تختارين؟»

قالت شاعرة باحمرار وجهها يزداد: «لا هذا ولا ذاك».

أخذ يتأملها ببرودة فهزت كتفيها: «كان الأمر مختلفاً في الشقة عندما كنا وحدنا... لا أشعر بالارتياح وأنا أفكر في النوم معك والسيدة ماتيوس في المنزل».

فقال عابساً: «هذا ليس جواباً للسؤال الحقيقي».

مضت لحظة كان الحافز لديها لإخباره بالحقيقة يسيطر

عليها... جمل عنيفة تشكلت في ذهنها، أرادت مهاجمته... أن تسأله كيف يتوقع منها أن تشعر بالرغبة في هذا البيت وفي هذه الغرفة بالذات حيث يذكرها الهواء الذي تتنفسه بأنها ليست سوى بديلة لامرأة أخرى... أن تخبره بأن هذا جعلها تشعر بالغثيان من النوم في السرير الذي كان ينام فيه مع زوجته السابقة، مدركة أن ليس عليه سوى أن يغمض عينيه ليتصور أن جوليا ما زالت بين ذراعيه...

وبجهد بشري خارق، كبحت هذه الأفكار، فالكلمات إذا خرجت من فمها فلن تستطيع سحبها أبداً ولن يعود ثمة رجاء في زواجهما إذا هي دفعت غرانت إلى قول أشياء لا تريد سماعها.

كان ما يزال منتظراً جواباً وقال: «حسناً؟»

تمتمت بانهزام: «لا أدري».

أخذ ينظر إليها لحظة بشكل غامض ثم تابع خلع ملابسه...

أحست بالغضب في وجهه البارد الملامح، وعندما استلقى على الفراش كان كل ما استطاعت عمله هو عدم الابتعاد عنه.

ولكنها فكرت بضعف أن ليس هناك فائدة من التظاهر برغبة لا تشعر بها.

* * *

٨ ـ شكراً... لا أريدك!

كان غرانت جافاً معها أثناء الفطور. لم يكادا ينطقان بكلمة، وأنهى طعامه وذهب بينما كانت ما تزال تعبث بقطعة من الخبز. كان قد بدأ بترويض اثنين من جياده الفتية وقد يغيب حتى وقت الغداء. جلست فران إلى البيانو وأخذت تتدرب رغم أن ذهنها كان لا ينفك يعود إلى الليلة الماضية ما جعل إداءها ضعيفاً، حتى إنها أخذت تكرر نفس الغلطة مراراً. وإذ تملكها الغيظ أصرت على إصلاح الغلطة آملة في نفس الوقت أن يضايق هذا السيدة ماتيوس.

ربما كانت المرة العشرين التي عزفتها فيها عندما اندفع غرانت داخلاً إلى الغرفة وقد احمر وجهه من الغضب وهو ينفجر قائلاً:

ـ أريحي نفسك بحق الله! كيف تتوقعين مني إداء أي كتابة وهذا الصخب والجلبة في الغرفة بجانبي؟

كان يلهث وقد انقبضت يداه بجانبيه، فتجمدت لحظة فوق مفاتيح البيانو. فقالت وقد تملكها توتر عصبي سريع: «آسفة، ظننتك في الخارج، فأنت تكتب عادة عند العصر والمساء».

فقال متهكماً: «حاولي النظر من النافذة، ليس هناك شخص بكامل عقله يخرج في مثل هذا المطر إلا مرغماً».

عادت تقول: «آسفة، أنا أعلم أن الجو ممطر ولكنني ظننتك خرجت في سيارتك إلى مكان ما. لم تخبرني بما ستفعله إلى منتصف النهار».

فرد بخشونة: «وأنت لم تسألي». وسكت محاولاً السيطرة على

غضبه. ثم عاد يقول: «فران، إنك لا تفعلين شيئاً سوى الطواف في المنزل طوال النهار وقد بدا عليك عدم الرضا. لاحظت أن ذلك يعود إلى إصرارك على العودة إلى لندن. لا بأس، سنعود إليها في الخريف. ستة أشهر هنا لأجلي وستة أشهر هناك لأجلك. والآن هل يمكنك أن تجعلي إقامتي أيسر قليلاً؟ لا بد أن هناك شيئاً يجذب اهتمامك غير هذا البيانو اللعين».

أنزلت فران غطاء البيانو واستدارت بمقعدها تواجهه. كانت ترتجف في داخلها وقد ثار غضبها مثله وقالت مقترحة بعذوبة:

ـ أطرز أغطية وسائد؟ أزور السيدة بورجيس العجوز في القرية؟

توترت شفتاه منذراً بالشر ولكنها لم تهتم، كان كلامها يقصد جوليا وكانت تريده أن يعلم هذا.

استدار ليخرج من الغرفة، ولكنه التفت إليها عند العتبة وقد بانت الكآبة على وجهه وقال بلهجة لاذعة: «إن هذا لن يضرك بشيء، فافعلي ما تريدين».

وصفق الباب فبقيت فران مكانها شاعرة بالخزي. بإمكانها أن تذهب لزيارة السيدة بورجيس. لقد كادت تفعل ذلك في آخر مرة زارت فيها بيت عمها ولكنها كانت غير واثقة من نفسها... إنها فران، ابنة أخ الحداد... فخافت إن هي حاولت أن تأخذ دور جوليا أن تفشل.

خرج غرانت من مكتبه ليتناول الغداء، ومرة أخرى أخذا يأكلان بصمت. وعندما أخذا يشربان القهوة، قالت فران: «غرانت.. آسفة لما حدث هذا الصباح».

ـ انسي ذلك.

قال هذا بعدم اكتراث فتنفست بعمق:

ـ لن أفعل هذا مرة أخرى فاقبل عذري على الأقل.

مال إلى الأمام فجأة يضع فنجانه على المائدة:

ـ لا بأس، أعترف بأن طبعي كان سيئاً على كل حال. فالمسرحية لا تسير معي بشكل حسن.

كان عبوسه قد تلاشى ولكنه ما زال غير مبتسم، لكن فران أدركت أن ذلك ليس بسبب المسرحية وإنما ذكرى الليلة الماضية وعدم تجاوبها معه هو سبب سوء طبعه. عليها بأي شكل أن تتغلب على هذا القصور فيها، وإلا فلن يكون هناك ما يبقيهما معاً. ولكن عليها أن تفتح موضوع مديرة المنزل أيضاً وإن لم يكن هذا الوقت مناسباً لذلك.

قالت بتردد وهي تعبث بفنجان القهوة: «ما قلته لي كان صحيحاً، فأنا لا أقوم بأي عمل. ولكن هذا ليس خياري... إنني أعلم أن ليس بإمكانك أن تطرد السيدة ماثيوس ولكن ألا يمكنك أن تحيلها على التقاعد؟ ادفع لها أجرها إلى اليوم الذي تستحق فيه التقاعد».

بدا نفاد الصبر على وجهه: «فران، إنك تجعلينها هاجسك مما يمنعك من التفكير الصائب... حتى ولو دفعت لها، فإن علينا أن نجد بديلة لها تسكن عندنا. وعدا عن العناية بالكلاب، ليس بإمكاننا الغياب أشهراً عن البيت تاركين البيت خالياً، كما أن ما يجعلك غير محبوبة في القرية على الإطلاق أن تتخلصي منها بعد كل تلك السنوات التي أمضتها هنا. هذا عدا عن أنك تسببين الضيق البالغ لزوجة عمك».

فقالت باكتئاب: «أظنك على حق، ولكنك لا تعرف مدى تأثير وجودها عليّ هنا».

رأت نظراته الساخرة فأدركت كم بدا جوابها غبياً في نظره، فتابعت تقول: «لا يمكنني أن أفعل شيئاً في البيت دون أن تراقبني

متقدة بصمت. وعندما أنقل شيئاً من مكان إلى آخر تعيده هي إلى مكانه».

بدا نفاد صبره واضحاً: «عليك إذن أن تفرضي شخصيتك وتتمسكي بحقك».

أدركت فران أنه لم يستطع أن يفهم صعوبة فرضها لشخصيتها على شخص أكبر منها سناً بكثير. لقد كانت السيدة مانيوس مصممة على أن لا شيء في المنزل يجب أن يتغير. كان هذا بالنسبة إليها شيئاً مقدساً يتصل بذكريات الحياة والأسرة وقد يكون ذلك بالنسبة إلى غرانت أيضاً... وربما يتوقعون منها أن تتلاءم مع ذلك كما فعلت جوليا. قد تكون أطول بعشرة سنتمترات وأصغر بثماني سنوات من المرأة التي استلمت مكانها، ولكنهما فيما عدا هذا متشابهتين.

بقي غرانت في مكتبه طوال المساء، وكان ما يزال هناك عندما صعدت فران إلى سريرها. أخذت تقرأ في كتاب ثم لاحظت أن صوت الآلة الكاتبة الخفيف توقف وأنه صاعد إلى الغرفة. جعلها التوجس متوترة ولكنها أدركت أن لا حاجة بها لذلك عندما أطفأ مصباحه على الفور ثم أدار ظهره إليها، وهو يقول:

ـ تابعي القراءة إذا شئت.

ذهلت لحظة. كان من قبل حتى ولو كانا متخاصمين لا ينام إلا بعد أن يقبلها تحية المساء.

قالت: «غرانت...».

رفع رأسه قليلاً عن الوسادة متسائلاً ولكنها عادت فقالت:

ـ لا شيء...

فقال بصوت هادئ وهو ما زال رافعاً رأسه: «لقد وضعت بالمناسبة في حسابك بعض المال، كان عليك أن تخبريني أنك مديونة للبنك، إن هذا لا يثقل عليّ خصوصاً وأنه نفس البنك».

حاولت أن تستجمع بعض نجحها الغاضب بالشجاعة حين اشترت كل تلك الأشياء الجديدة لغرفة النوم، ولكنها لم تجد في نفسها سوى خوف يبعث على الغثيان. سبق وحاولت الاتصال بالمتجر لكي تلغي البيع. ولكن معظم المشتريات صنعت لأجلها خاصة وفات الوقت. ولحسن الحظ، عندما وصلت المشتريات تلك كان غرانت ومديرة المنزل غائبين، وشعرت أنها كانت ستموت لو أنهما رأيا الفراش محمولاً على السلم. منحت الرجلين اللذين أوصلاه هبة سخية لكي يضعا الفراش القديم في المخزن ورأت الحيرة على وجهيهما لرؤيتهما فراشاً جيداً غالياً وبحالة جيدة يوضع في المخزن على الغبار.

نظفت السرير بسرعة وعلقت الستائر، وعندما انتهت وجدت أنها لم تفعل سوى أن جعلت الغرفة تبدو كئيبة، وأن الكلة البيضاء ذات «الكشاكش» المتطايرة حول السرير لم تغيّر شيئاً.

وعند المساء قال غرانت ساخراً: «أراك كنت مشغولة» ولكنه لم يقل شيئاً آخر فظنت أنه تلقى أخيراً قائمة الحساب.

لو أحدث الفراش الجديد تغييراً سحرياً لكان استحق ثمنه، ولكن هذا لم يحصل. كان غرانت رجلاً قوي المشاعر، ولكنه أخذ يبتعد عنها شيئاً فشيئاً، بعد أن رأى أنه لم يعد يستطيع أن يثير مشاعرها. وأخيراً توقف عن الاقتراب منها نهائياً.

من الغريب أن علاقتهما الآن أصبحت أكثر يسراً... اشترى لها غرانت حصاناً أحبته للغاية فأخذت تجول به في الأنحاء تعيد اكتشاف بعض صديقات طفولتها اللاتي تزوجن في القرية ومعظمهن لديهن أطفال فتذكرت كم كانت متلهفة ذات يوم لحمل طفل من غرانت... لقد سألته في بداية عودتها إلى القرية عما إذا كان يريد أولاداً وفكر طويلاً ثم قال: «إذا شئت».

ولم يكن هذا هو الجواب الذي أرادته. أما الآن فلم يعد ممكناً أبداً أن تنجب، وزياراتها لصديقاتها الأمهات جعلتها قلقة غير مسرورة.

كان عيد ميلاد غرانت في حزيران، فطافت على متاجر بيع الأشياء القديمة تبحث عن كتاب كانت تعلم أنه يريده. ناولته إياه وقد احمر وجهها انتصاراً، وأمسكت أنفاسها وهو ينزع الورق الجميل الملفوف به ثم ارتاحت وهي ترى ابتسامة الارتياح على وجهه.

قالت: «إنه في حالة جيدة، كل صفحاته موجودة».

وضعه على المائدة بعناية ثم جذبها نحوه وقبل جبينها: «إنك فتاة ماهرة... منذ سنوات وأنا أبحث عنه. أين عثرت عليه؟»

ـ في متجر للكتب قرب «روس»، ولكنني بحثت في أكثر من عشرة متاجر قبله. رأيت كتاباً آخر مثله ولكن دون الملاحظات والتفسيرات.

تناوله يفحصه مرة أخرى ثم ابتسم لها: «إنه رائع الجمال، شكراً».

بعد ذلك بوقت قصير عاد إلى مكتبه، ولكن قلب فران كان مسروراً. وبعد الظهر اندفعت إليه تقول: «غرانت، فلنذهب إلى أي مكان هذه الليلة وحدنا فقط».

رفع بصره إليها بدهشة سريعة فأضافت متوترة: «إذا لم تكن مشغولاً».

صمت لحظة، ثم نهض مبتعداً عن الآلة الكاتبة: «لا، لست مشغولاً، أين تحبين الذهاب؟»

ـ فقط لنتعشى في مكان ما.

ـ أتفضلين مكاناً بالذات؟

ـ لا. أظنني أريد الذهاب إلى مكان لم أذهب إليه من قبل، مكان

بعيد.

ـ لا بأس، سأبحث عما تريدين.

تناول مفكرته يطالع العناوين وأرقام التليفونات، فتركته وعادت إلى الحديقة تقتلع الأعشاب الطفيلية من حول الورود. وبعد دقائق فتح نافذة مكتبه ونادى: «ثم الحجز».

رفعت بصرها إليه تزيح الشعر عن عينيها بقفا يدها بينما تابع هو يقول: «إنه في فندق تغديت فيه عدة مرات» ونظر إلى تنورتها القديمة التي تلبسها عند العمل في الحديقة وشعرها الأشعث ثم قال بابتسامة خفيفة: «عليك أن ترتدي شيئاً أحسن من هذا».

فقالت بمرح: «لن أجعلك تخجل بي بين الناس».

ثم سكتت وهي ترى ابتسامته تذوي ثم يقول بنعومة وملامح جامدة:

ـ هذا يا عزيزتي هو الشيء الذي لا أخافه منك.

اغرورقت عيناها بالدموع وتابعت عملها... لقد تحسنت الأمور بينهما حين اقتصرت على الصداقة المهذبة. شعرت بالألم وهي تتذكر كيف كانا يضحكان معاً، والمصائب التي كانت تحدثها أحياناً عند الطبخ، وذلك اليوم الذي جعلت فيه كل قمصانه زرقاء في الغسالة فبدا لهما هذا مضحكاً للغاية، لكنهما الآن لم يعودا يعرفان الضحك.

انتظرته في زاوية ريثما يعود إليها، وإذا بمجموعة تحييه من الطرف الآخر وعرفت فران أنهم من مجموعة الأثرياء الذين يملكون الأكواخ الصيفية على ضفاف النهر على حدود وايلز. كانوا ينفقون بسخاء ما جعل غرانت يزدريهم بصمت، وغاص قلبها عندما أشاروا إليها يدعونها للانضمام إليهم.

قبلت المقعد المقدم إليها مترددة راجية أن يخلصها غرانت منهم عندما يحضر. كانت الزوجات يقسن النجاح بكمية المجوهرات التي

يتباهين بها. وعلمت أنهن كن يتساءلن لماذا يتزوج رجل مشهور بفتاة إعلانات مغمورة.

كان غرانت من يهتممن به وليس هي. سألتها واحدة منهن عن شعورها كزوجة لرجل مشهور فأجابت مجاملة مؤكدة أهمية البريق الزائف لحفلات الرقص والعشاء.

كانت تتحدث بحماس وحيوية عندما انتبهت إلى وجود غرانت الصامت بجانبها. لم تعلم منذ متى هو واقف يستمع إليها وأجفلت داخلياً وهو يرمقها بسخرية ثم يبتعد، فأخذت تراقبه وهو يتلقى بصمت التملق الزائف وقد بدت لها سخريته الخفية. عندما تلاقت أعينهما رأت التهكم يشع فيهما وفكرت عابسة بأنها ليست بحاجة إلى درس في الأخلاق منه لتعلم تفاهة من تجلس معهم.

لم تعترض حين اقترحوا أن يتناولوا جميعاً العشاء معاً، رغم أن غرانت وافق على ذلك دون استشارتها. على كل حال، جلسا مقابل بعضهما البعض ورأته يفرغ كل سحره على المرأتين اللتين على جانبيه. بدا وسيماً للغاية ومنظره وحده كفيل بأن يدير رأس أي امرأة. أخذ يتصرف بشكل مقيت ولكنها الوحيدة التي أدركت ذلك لأن المرأتين كانتا من الافتتان به بحيث لم تدركا أنه كان يعبث بهما.

بلغ منها الغضب أن التفتت إلى الرجل الذي إلى يمينها، ومنحته ابتسامة بطيئة، ثم أطلقت ما لديها من جاذبية تعلمت إبرازها أثناء تصويرها.

رأت الرجل يتوقف عن الأكل، ثم ينظر بسرعة إلى غرانت ويقول بنعومة: «أليس هذا زوجك؟»

كانت رسالتها واضحة وهي أن تصرف غرانت كان يعني أنهما في وضع لا يمكنهما من الشكوى. تركت عينيها ترسلان دعوة سافرة جعلت الرجل الذي تذكرت أن اسمه رالف يميل نحوها. ورأت

نظرات غرانت تتجه نحوها بسرعة خاطفة فأدركت أنه لم يرها قط من قبل تتعمد الغواية بهذا الشكل. منحته نفس الابتسامة المغوية التي منحتها لرالف، تتحداه أن يعترض على ما تفعل، وبعد لحظة رمقها بنظرة تسلية وسخرية ثم التفت إلى زوجة رالف بجانبه.

لم تكن واثقة مما إذا كانت التسلية أم السخرية ما آلمها، ولكنها بعد ذلك تصرفت بشكل فاضح. وعند نهاية العشاء لم تبق زوجة واحدة لم تكرهها، كما اعتقد رالف أنها متلهفة إلى الذهاب معه في يخته لقضاء عطلة الأسبوع إذا تمكنت من الهرب من زوجها. كان غرانت الآن بعيداً عن الشعور بالتسلية، ولكنها فكرت باستخفاف أنهما يستحقان هذا، فهو يعلمهما أن يكونا أكثر حذراً في المستقبل من إثارة غيرة بعضهما البعض.

عندما انتهت السهرة أخيراً، كان الوقت قد تأخر وكانت هي وغرانت آخر من غادر. وعندما خرجا إلى موقف السيارات كانت سيارتهما وحدها، وسمعت غرانت يتمتم بشتيمة قبيحة وهو يسرع نحوها، فتبعته فران تسأله: «ماذا حدث؟»

قال باختصار: «هناك من شق العجلات».

ورأت أن السيارة كانت هابطة من الخلف، كما رأت خدوشاً متعرجة في الدهان.

سألته وقد امتلأت اشمئزازاً: «من تراه فعل ذلك؟»

فقال بتهكم عابس: «ربما زوجة أحد أولئك الذين كانوا يغازلونك».

ودفع بقدمه إحدى العجلات: «حسناً، ليس لدي سوى عجلة احتياطية واحدة وهكذا فلن نذهب إلى أي مكان هذه الليلة. إما أن نتصل تليفونياً نطلب تاكسي أو نرى ما إذا كان الفندق سيعطينا غرفة، ما الذي تفضلين؟»

ـ الذي تظنه الأسهل.

هز كتفيه: «إذا كان لديهم غرفة، فهذا أسهل. يمكنني أن أحصل على عجلات جديدة عند الصباح ثم نذهب بها إلى البيت بدلاً من المجيء لأجلها».

وجدا غرفة في الفندق حتى إن الخادم تمكن من تزويدهما بفرشاة أسنان.

لأول مرة منذ مغادرتها لندن، تشعر فران بمشاعرها تتحرك بجانبه في السرير، ربما بسبب تغيّر الغرفة. عادت إليها كل مشاعرها وأحاسيسها، وانتظرت لترى ما سيفعل لا تجرؤ على الحركة. لقد أغضبه سلوكها هذه الليلة ومن الممكن جداً أن ينبذها، إن أي مبادرة يجب أن تأتي منه.

بدا لها انتظارها طويلاً قبل أن يستدير إليها يأخذها بين ذراعيه.

اشتعلت فيها النار وهي تتأوه: «آه، يا غرانت...».

ولكنه لم يتحرك وسألها: «والآن هل تريدينني؟»

أومأت بلهفة: «نعم، نعم... غرانت».

فابتعد عنها فجأة ما جعل الصدمة تتملكها ثم قال بوحشية: «والآن أصبحت تعرفين نوع هذا الشعور».

وجلس جاعلاً الوسادة خلفه. ومع أنها كانت تعلم أن مشاعره نحوها تماثل مشاعرها قوة إلا أنه لم يظهر ذلك وأخذ ينظر إليها بعينين ضيقتين دون أن يتحرك وهو يرى احمرار وجهها يتلاشى مخلفاً الشحوب.

قال لها بصوت خشن: «كنت أنتظر طوال السهرة هذا التغيير المفاجيء في مسلكك وها أنذا أراه قادماً... كنت متألقة تماماً هناك في غرفة الطعام، ملهبة مشاعر كل أولئك الحمقى ومشاعرك أيضاً في نفس الوقت. ولكن كان على شخص ما أن ينبهك، يا عزيزتي، إلى

أن ليس ثمة رجل يحب أن تجعله امرأة بديلاً لغيره. قد لا يكون لدي بحث وقيلا في باهاما مثل رالف، ولكن لدي ما يكفي من الكرامة لأن أرفض تدفئة نفسي بالنار التي أشعلها هو».

أشاحت بوجهها بصمت لا تكاد تصدق ما تسمعه، بينما تابع يقول بقسوة: «لقد فات الأوان يا زوجتي الجميلة.. فقد تعلمت أن أستغني عنك، ولن أستعيد كل ذلك الإحباط مرة أخرى لأنك استمتعت بالسهرة... وإذا قررت يوماً أنني أنا من تريدين حقاً.. أنا وحدي دون حفلات وإعجاب الرجال الآخرين، فدعيني أعلم وسنتحدث عن ذلك. أما الآن كلا شكراً فالأمر لا يستحق ذلك».

وأدار ظهره إليها بازدراء، تاركاً إياها مليئة بالغضب والكرامة الجريحة. الكرامة الجريحة لأن ظنه غير صحيح أبداً، والغضب لأنه جرؤ على الكلام عن البديل بينما هي نفسها بالنسبة إليه لا شيء سوى ذلك.

كانت ستهجره عند الصباح لو لم يستقبلهما عندما وصلا إلى البيت كلبان فقط. كانت راف تموت...

كان جارهم البيطري جون معها، فهز رأسه لمنظر فران العابس المتسائل وقال: «آسف، إنه كبير السن وليس ثمة شفاء له. هل...؟»

أومأ غرانت متوتر الشفتين، بينما استدارت هي خارجة من الغرفة بسرعة، إنها سترحل. عليها أن ترحل إنقاذاً لنفسها، ولكن ليس اليوم وهو حزين لأجل راف.

طفحت عيناها بالدموع فركضت صاعدة إلى غرفتها، وعندما رأت غرانت مرة أخرى عند الغداء كانت عيناها ما تزالان حمراوين من البكاء.

قال بهدوء: «كانت كلبة عجوزاً وعمياء تقريباً. وكان لا بد أن

يحدث هذا».

تملكها الذهول فوضعت السكين والملعقة على المائدة، ثم بحثت عن منديلها لتمسح دموعها. دار حول المائدة يمسك بها ضاغطاً رأسها إلى صدره، فأدركت أنه ما زال لديه شعور نحوها يكفي كي يجعله يريد تخفيف ألم الفقدان عنها رغم أن ألمه لا بد أكبر بكثير.

* * *

مرّت عدة أسابيع دون جديد. يوماً ما سيحدث ما يميل بالتوازن فتتخذ الخطوة النهائية. لقد حان الوقت لكي تحزم أمرها وتتقبل ما لا مناص منه، وكان هذا يشعرها بسلام غريب.

لم تعد تهتم برأي السيدة ماتيوس فيها، وكانت وهي وغرانت يعاملان بعضهما البعض معاملة هادئة طيبة، كما أن الجوّ كان رائعاً فكانت تمضي عصر كل يوم فوق التل تجني التوت البري وتتفرج على المخيمين على ضفاف النهر. كان الكلبان أحياناً يقتفيان أثرها إلى مخبأها وقدم غرانت مرة معهما، فجلس بجانبها قائلاً: «إذن فإلى هنا تأتين؟».

أومأت وهي تتساءل عما إذا كان يدرك أنه نفس المكان الذي أبعدته فيه غلطتها المصيرية عنها... أشعرتها الذكرى بأثر من الإثارة القديمة، وبشكل ما بدا ذلك وكأنه صلة بينهما، ودون أن يخبرها، أدركت أنه يذكر ذلك هو أيضاً.

نظرت إليه فرأت عواطفه المألوفة في ملامحه، وفجأة عانقها وقد عاد تجاوبهما العنيف، وفي هذه اللحظة سمعت فران أصوات مجموعة مرحة تنادي بعضها بعضاً في الغابة القريبة.

استقام جالساً، ثم نهض يجذبها لتقف.

ـ عودي إلى البيت.

تبعته طائعة إلى البيت إلى أن دفعها إلى غرفة النوم حيث حملها إلى السرير.

عندئذ عادت البرودة تستقر في جسدها تشلّها، وملأها اليأس لأنه لم يعد لديها أي إحساس.

وتحوّل عنها فجأة بعد أن لاحظ برودها، فحاولت أن تتغلب على جرح كرامتها إزاء نبذه المفاجئ لها. حاولت أن تمدّ يديها إليه متحببة ولكن موقفه حذرها من ذلك، وبعد فترة قال بمرارة:

ـ إياك أن تزعجي نفسك بذلك مرة أخرى.

ـ أزعج نفسي بماذا؟

فصرخ بنفاد صبر متوحش: «آه، بحق الله. أتظنينني لا أعرف حقاً؟»

ونهض متكئاً على مرفقه ينظر إليها بملامح كالثلج: «لقد عانقتك مئات المرات حين لم تكوني تزيفين مشاعرك حتى لم يعد يخدعني هذا».

ثم عاد يستلقي على ظهره وهو يقول بصوت شارد: «كان بإمكاني حتى أن أشعر بالفرق حين تكونين متعبة أحياناً، تلك الأيام أصبحت بعيدة الآن».

سكتت فترة طويلة وأخيراً همست ضارعة: «غرانت، عد بي إلى لندن.. كنا سعيدين هناك، إنه هذا البيت الذي صنع بي ذلك، لا أستطيع أن أفسر الأمر ولكن هذا ما حدث».

فقال بوحشية: «وعندما تصبحين هناك بين الأنوار المتألقة ستظهرين مبلغ عرفانك للجميل. آه، كلا يا سيدتي الزوجة. فهذا هو بيتي، المكان الذي ولدت فيه، وهو المكان الذي أعمل فيه بشكل أفضل. وربما عليّ أن أذكرك بأنني أعمل بداعي الحاجة، فالمال لا يخرج من بئر لا قعر لها. وعليّ أن أكتسب المال إذا كنت سأستمر

في إمدادك بالرفاهية التي تظنينها ضرورية».

ونظر باوذراء إلى الكلة البيضاء فوق رأسه وسكت طويلاً قبل أن يعود فيقول: «وهكذا إذا أردت العودة فاذهبي وحدك».

سألته بهدوء: «هل تطردني يا غرانت؟»

ـ كلا، وإنما مجرد ترك الخيار لك، تماماً كما حددت لي خياري.

ونهض فجلس على حافة السرير: «هنالك خيار مفتوح أمامي يبدو أنك لم تفكري فيه ولن يلومني أحد إذا أنا اتبعته».

فكرت في هذا من قبل مراراً حتى إنها تساءلت عما إذا كان قد وجد امرأة أخرى. من الواضح أن هناك خطراً في أن ينشد رجل عاطفي قوي المشاعر مثله السلوى في مكان آخر.

تملكتها الغيرة إزاء تهديده هذا، وإذ تملكتها رغبة وحشية في أن تجرحه بالمقابل، سألته: «هل فعلت هذا من قبل؟ ألهذا تركتك جوليا؟»

فقال بفتور: «كلا، لم أكن قط غير مخلص».

تملكتها المرارة، لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة إلى تلك المرأة النموذجية.. تلك المرأة التي تركته ولكنها ما زالت من الكمال بحيث لا يسمح بأي نقد لها مهما كان تافهاً، حتى إنه صفح عنها كما يبدو لهجرها له.

أدارت وجهها إلى الوسادة وقالت بصوت مختنق:

ـ ولكن جوليا ما كانت لتعطيك سبباً للقيام بهذا، أليس كذلك؟ لأنها ليست مسرفة ولا ساخطة ولا باردة!

فقال بهدوء نبهها إلى الغضب الكامن وراءه: «كلا واحفظي لسانك من الحقد والسخرية منها.. فهي توازي بالقيمة عشرين فتاة مثلك».

استدارت تنظر إليه برتدي ثيابه وقد لوى الغضب ملامحه، ولأنه لن يستطيع قول شيء أسوأ مما قاله لها، خصوصاً الكلمات الأخيرة، سألته: «لماذا تركتك إذن؟»

نظر إليها بمرارة وقال بفتور ساخر: «لا أريد إرضاءك بسماع هذا».

ما هو الذي سترضى بسماعه منه؟ أخذت تتساءل وهي تنظر إليه يرتدي حذاءه بحركات متوترة تنبئ بهياج مكبوت ما زال يغلي في داخله ثم وقف واستدار ينظر إليها: «لكنني سأخبرك بشيء، لو أنها ظهرت أمامي الآن فجأة فليس هناك ما يمنعنا من الصلح».

* * *

٩ ـ الرغبة وحدها لا تكفي

لم يعد هناك فائدة من انتظار حدوث معجزة تعيد إليهما سعادتهما الأولى الشاعرية، فاتصلت فران بساشا تسألها إن كان سريرها ما زال خالياً، وعندما سألتها ساشا: «هل لأجل إعطائه درساً لتصرفه كحقير، أم بصفة دائمة؟»

أجابت بصوت مرتجف: «الأمر نهائي».

فقالت ساشا بسرعة: «لا تهتمي بالشرح الآن يا حلوتي، وسأنتظر إلى حين مجيئك. متى ستأتين؟»

لم تكن فران تعرف متى ستغادر بيتها بالضبط. قررت تجهيز نفسها في وقت تكون السيدة ماتيوس غائبة في عطلتها الأسبوعية فلا تثير شبهة، وبعد ذلك تهرب متى سنحت لها الفرصة لأنها كانت واثقة من أن غرانت رغم كل شيء سيمنعها من الرحيل لو استطاع.

لم يكن عليها القيام بالكثير، فالملابس التي لم تكن تريدها أخذتها إلى القرية للسوق الخيرية. ما كان صعباً هو أوراق السيارة فقط، فقد كان غرانت يحتفظ بها في مكتبه في درج مقفل. ولكنها تمكنت من إخراجها، ثم انتظرت غياب غرانت عن البيت مدة تكفي لحزم أمتعتها والرحيل قبل أن يكتشف غيابها.

مضت أيام لم يكد يترك فيها البيت، ولكن عندما ابتدأ اليأس يتملكها، أعلن ذات صباح أنه سيذهب إلى «وورستر» في اليوم التالي ولن يعود قبل المساء.

لم تجرؤ على التحدث إليه قبل مغادرته خوفاً من نضح

نفسها... أخذت تراقبه من النافذة وهي تتساءل عما إذا كانت ستراه بعد الآن. عندما غابت السيارة عن النظر خلف الأسيجة، ركضت صاعدة إلى غرفة النوم وأخذت تتابعها فوق النهر وخلال الوادي إلى أن أصبحت خيالاً ضئيلاً. وعندما اختفت أخيراً بقيت لحظة تحدق في أثرها وهي تشهق باكية وقد تملكها حزن بالغ للسعادة التي عرفتها مرة ثم فقدتها.

خلف البكاء صداعاً في رأسها فصنعت لنفسها فنجان قهوة في سكون المطبخ ثم أخذت بعض الأسبرين... كانت تعلم أن عليها أن تتمالك نفسها وتسيطر على أفكارها إذا شاءت أن تتمكن من السفر.

ولكنها لم تستطع السيطرة على أفكارها... عليها أن تترك رسالة لغرانت، ولكن عندما حاولت الكتابة رأت نفسها تبكي مرة أخرى فلم تستطع رؤية الصفحة. الكلمة الوحيدة التي تمكنت من التفكير فيها كانت (الوداع) ولكنها لم تستطع كتابتها، وفي النهاية جعّدت الورقة وألقتها في سلة المهملات. عندما تصل إلى ساشا وتهدئها هذه ستتصل به تليفونياً.

غسلت عينيها بالماء البارد ووقفت عند النافذة لحظة تتنفس بعمق، ثم سحبت حقيبتين من الخزانة وابتدأت تجمع حاجياتها على السرير. ولتبدد سكون البيت الخالي فتحت الراديو ولكن الأغنية التي انطلقت تنوح على الحب الضائع ضغطت على أعصابها فعادت تقفله. ثم ظنت أنها تسمع صوت شخص يصعد السلم فاستدارت بسرعة.

كان غرانت واقفاً عند العتبة ينظر إليها ووجهه خال من التعبير. ثم أخذت عيناه تجولان في أنحاء الغرفة لتستقرا فترة على الأدراج والخزانة المفتوحتين، وأخيراً على حقيبتها نصف الممتلئة وملابسها المكومة على السرير.

جمدت لرؤيته. حاولت الكلام ولكنها لم تستطع. وأخيراً ابتلعت ريقها ثم قالت بتردد وغباء: «إنني راحلة يا غرانت».

فقال بهدوء: «هذا ما أراه».

وتقدم داخلاً إلى الغرفة ثم دس يديه في جيبيه ومضى ينظر إلى استعدادها بهدوء ظاهر وجدته أكثر إثارة للأعصاب من ثورة الغضب: «كنت أعلم بتخطيطك لهذا منذ فترة من الوقت».

ـ وكيف...

ثم سكتت تعض شفتها.

ـ كيف علمت؟ نسيت أن هذا ليس أمراً جديداً بالنسبة إلي. لقد حدث كل هذا من قبل، ويمكنني تمييز الدلائل.

قال هذا مبتسماً بعبوس وقد ابتدأ غضبه يظهر.

تقدم وفتح درج منضدة الزينة حيث أخرج مغلفاً كبيراً أسمر أفرغ محتوياته على المنضدة: «جواز السفر، البطاقة الطبية، رخصة السير، أوراق التأمين، رسائل... لقد جمعتها منذ أسبوع».

ونظر إليها ثم تقدم نحو الخزانة وفتحها على اتساعها:

ـ ولا بد أنك ظننتني قليل الملاحظة كي لا ألاحظ أن نصف ملابسك مفقودة.

فقالت بجمود: «فكرت في أن أجنبك إزعاج نفسك بإخلاء الخزانة بعدي».

ـ يا لك من رقيقة القلب!

سكت ويده ما زالت على الباب، ثم تابع يقول مهدداً: «ولكنك تسرعت لأن عليك الآن أن تعيدي كل هذه الأشياء إلى أماكنها».

عندما رأت القسوة البالغة في ملامحه، فكرت في أن تطيعه. ستكون هناك فرص أخرى، وجعلتها فكرة متابعة هذه المواجهة تشعر بالغثيان. ولكنه سيراقبها في المستقبل. وما دامت وصلت إلى هذا

الحد فالأفضل أن تنهي الأمر.

رفعت رأسها وقالت بتمرد: «لا».

ـ لماذا الجدل؟ لقد أخذت مفاتيح سيارتك وأنا داخل وهكذا لن تذهبي إلى أي مكان.

رأى تمردها يتلاشى وكتفيها تنحنيان بانهزام، ثم ضاقت عيناه بابتسامة غير سارة وقال: «أخبريني يا زوجتي العزيزة، حيث إنني أظن هذا الرحيل مقدمة لطلاق نهائي، ماذا ستخبرين القاضي عن سبب تحطم زواجنا بشكل يتعذر إصلاحه؟ أية براهين يمكنك تقديمها؟»

لاذت بالصمت فسألها بصوت قاس: «حسناً؟ هل أنا سكير؟ هل أضربك؟ لا أنفق عليك كما يجب؟ كما إنك لا يمكن أن تتهميني بالزنا رغم الإغراء الواضح لي بأن أخرج مفتشاً عما ينقصني في فراشي؟ في هذه الحالة أظن المحكمة ستهنئني على صبري».

فقالت بعنف: «هنالك وسائل أخرى أكثر خبثاً ومكراً تجعلك لا تطاق، أنا واثقة من أنهم سيدركونها، ولكنني لم أفكر في هذا النوع من الأسباب. على كل حال، لا يلزمنا سوى العيش مفترقين لمدة سنتين لنحصل على الطلاق».

ـ آه، ولكن هذا يطبّق فقط في حالة موافقة المدعى عليه على الطلاق. وأنا لا أنوي الموافقة.

حملقت فيه فاقشعر جسمها للقسوة البادية في ملامحه، فهمست:

ـ ولكن لماذا؟ ماذا يفيدك هذا؟

ـ لأنني لا أريد أن يعتبرني كل إنسان الطرف النذل للمرة الثانية.

فقالت بمرارة مفاجئة: «جميل أن تكون مقتنعاً تماماً ببراءتك».

جذبت نفساً عميقاً لتهدئة نفسها ثم تابعت تقول: «ومع هذا فما

زلت أريد الرحيل مع أو بدون أمتعتي. لا يمكنك أن تسجنني».

فقال: «هذا صحيح، ليس جسمانياً. ولكن قبل أن تقومي بأي أمر نهائي، أقترح أن نتبادل حديثاً صريحاً. هلاّ جلسنا؟»

ترددت ثم جلست على كرسي وهي تنظر إليه بزيح ملابسها جانباً ويجلس على حافة السرير.

قال بهدوء: «أولاً دعيني أوضح لك أنك ستنتظرين خمس سنوات كاملة لتنالي الطلاق، فإذا قدمت قبل ذلك التماساً فسأرفضه وتخسرين أنت القضية».

سكت وهو يرى ذعرها، رغم أنها تعلم أنه أساء فهم السبب. لم تكن في الحقيقة تهتم بالوقت الذي ينتهي فيه زواجهما، بل مجرد فكرة القيام بذلك بروح العداء والحقد هو الذي أفزعها.

أسبلت أهدابها محاولة إبداء عدم الاهتمام، بينما تابع يقول: «ثانياً: لا تتصوري مسرورة أنني سأنفق عليك طوال هذا الوقت. حال خروجك من هنا، يمكنك أن ترفعي عليّ دعوى نفقة ولكنني لا أنصحك بذلك، إذ في الوقت الذي ينتهي فيه المحامي وكيلي منك وتنشر القضية في أكثر الصحف اهتماماً بالموضوعات المثيرة، لا تكونين اكتسبت سوى سمعة سيئة للغاية، فكري في هذا».

فقالت ساخرة: «لا حاجة بي لذلك، فأنا لا أريد منك شيئاً».

وشعرت بالرضا لدهشة بدت في عينيه ما لبثت أن تحولت إلى سخرية، فسألته بشيء من الضراعة: «لماذا لا نكون متمدنين بالنسبة لهذا الأمر يا غرانت؟ ما الفائدة من المعارضة وجعلي أنتظر الطلاق خمس سنوات؟ إنك ستربط نفسك مثلي».

ـ هذا صحيح، ولكن هذا لن يؤثر عليّ.

رأى سؤالاً صامتاً في النظرة السريعة التي رمقته بها فلوى شفتيه:

ـ لا أقر المثل الذي يقول إن الحظ يأتي في المرة الثالثة. وقلبي لا يحتمل تجربة أخرى.

وقف مشيحاً وجهه عنها، فقطبت جبينها وأخيراً قالت: «معنى هذا أنك تريدني أن أبقى؟».

ـ نعم هذا صحيح.

ـ لماذا؟

ـ ربما أريد ما وعدتني به ووضعت توقيعك عليه بحضور الشهود.

فقالت بلهجة لاذعة: «أنت لم تشعر بالارتباط بالعهود التي قطعتها قبلاً، فلماذا أرتبط أنا بها الآن؟»

التفت إليها بسرعة وقد توتر وجهه غضباً، فتراجعت إلى الخلف محتمية بالكرسي. ولكن الغضب ما لبث أن تلاشى ثم قال بنعومة: «ربما أريد مقابلاً معقولاً لما أنفقته عليك».

ـ أو ربما تريد فقط أن تبقيني هنا لتتجنب اعترافاً آخر بالفشل.

ـ لماذا لا؟ ليس هناك رجل يحب تعريض نفسه للسخرية كما أن انفصالنا لن يكون مجرد شأن محلي. لا أحب الإعلان للعالم أنني كنت من الحماقة بحيث افتتنت بوجه جميل.

فردت بمرارة: «إنك تذهلني. ظننتك أردت جسدي، فقد أخبرتني مرة إن الرغبة ليست كل شيء، لكنها هكذا بالنسبة إليك، وعندما تموت الرغبة لا يبقى شيء».

قال بخشونة بغضب مفاجيء: «تذكري أنك أنت التي قتلتها».

وحدق إليها باكتئاب: «وعرفت كيف تقومين بهذا، أليس كذلك يا زوجتي الجميلة؟ كيف تمنحين الأمل ثم تسحقينه. أحياناً تتجاوبين معي عندما أقبلك، فأظن أن هذه المرة سيكون الأمر مختلفاً.. وأننا سنعود إلى ما كنا عليه في البداية، وفجأة.. لا شيء، إذا بك تبردين

وتصبحين بين يدي جنة لا حياة فيها. لا تجاوب، لا ردة فعل، لا مشاعر.. لا شيء».

فقالت بيأس: «لم أتعمّد هذا، يا غرانت. كان هذا خارجاً عن إرادتي».

وأخذت تفكر متسائلة لماذا ما زال يهمها حتى الآن أن تحاول إقناعه، ثم هزت كتفيها بعجز وهي ترى عدم تصديقه الواضح: «كان المفروض أن تفكر في أن بلوغك الثامنة والثلاثين يجعلك تعلم أن بعض النساء لا يثير مشاعرهن الخبرة الجسدية المجردة. إنهن يتأثرن بالمحيط والجوّ وأشياء أخرى لا يراها الرجال هامة».

رد عليها بعنف: «لو إنني لم أعلم من قبل لعلّمتني أنت بكل تأكيد. نعم، فأنت يلهيك الجوّ تماماً فليمنحوك الحفلات والمسارح والثياب الغالية وإذا بك تصبحين حلم كل رجل».

فهتفت غاضبة وهي تقبض يديها: «هذا غير صحيح، وأنا لن أزعج نفسي بإنكاره مرة أخرى لأن لا شيء أقوله بغير من رأيك. استمر في اعتبار نفسك بريئاً إذا كان هذا يرضيك ولكن صدّق أو لا تصدّق أن هناك نوع من النساء بحاجة إلى الشعور بأنهن أكثر من مجرد هدف للرغبة. الأمر ينجح فترة، ولكنه وحده لا يكفي. إنهن بحاجة إلى النوع الآخر من الحب أيضاً».

ـ أهكذا؟

رفعت بصرها إليه فرأته يتفرس فيها بنفاد صبر:

ـ كيف ينطبق كل هذا علينا؟ هل تحاولين أن تثبتي أنني تزوجتك لأجل جسدك فقط؟

أبقت صوتها هادئاً: «كلا، فهذا جزء منه فقط، إنني أقول إنك تزوجتني ليس لأجل نفسي ولكن لأجل ما ظننتني عليه».

ـ ها قد اتفقنا على شيء على الأقل. ما هو الذي توقعته مني أو

أردته فلم أعطك إياه؟ ما الذي تريدينه يا فران؟

فقالت ببلادة: «لا شيء يمكنك أن تمنحني إياه على كل حال».

وحولت نظراتها تحدق في الثياب والحقائب على السرير وهي تقاوم دموعها. وبرغبة مفاجئة لإفراغ بعض ألمها على غرانت، قالت بقسوة: «عد إلى غالينك جوليا وتوسل إليها أن تصفح عنك. الله يعلم إنك تدفع لها ما يكفي لكي يبقيها راضية».

ونهضت لتبتعد، ولكن يده اندفعت تقبض على معصمها يجرها إلى الخلف وهو يسألها ببرودة: «وكيف علمت بذلك؟»

حاولت أن تلوي معصمها لتفلته، ولكن قبضته اشتدت، فقالت بخوف: «لقد بدّل ساعي البريد بياني البنك إلينا، فتحت بيانك دون أن أعلم فرأيت الحوالة».

تلاشى خوفها فقابلت عيناه بعنف:

ـ ألا تظن أنه من غير الحكمة أن تعطيها مثل هذا القدر؟ من المحتمل أنها لن تتزوج مرة أخرى إذا كان الزواج يعني خسارتها هذا الدخل مدى الحياة.

فقال بازدراء بصوت خافت: «يا لك من ماكرة».

ـ كل ما في الأمر إنني عملية، إذ بهذه الحالة لن تستطيع تحمل نفقتي القضائية ولهذا لا فائدة من طلبها.

جذبت معصمها منه فظنت لحظة أنه سيضربها فقد احمر وجهه غضباً، ولكنه تمالك نفسه بجهد واضح وقال بفتور:

ـ كان من الغباء أنني حين فتحت رسالتك لم أدرك أنك استلمت رسالتي. في هذا جواب على كثير من الأسئلة.

تمنت فران لو أنها أمسكت لسانها، وقال هو بسخرية عنيفة: «هذا إذن ما كان يدمّر نفسك الجشعة الخسيسة، ولهذا أردت الرحيل للبحث عن شخص أفضل».

لم تجب، فشملها بنظراته باحتقار. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج مفاتيح سيارتها وألقاها إليها وكأن لمسه ليدها يلوثه.

ـ لن أقف في طريقك يا عزيزتي، ويمكنك أن تنالي طلاقك. وكذلك أن تحتفظي بالسيارة أيضاً.

ردت عليه متوترة: «يا لشهامتك! لا يمكنك أن تأخذها على كل حال لأنها مسجلة باسمي. ولكن شكراً لك، سأحتفظ بها. بالرغم من تبرئتك لنفسك الذي يثير الغثيان، فشل زواجنا ليس من طرف واحد كما يحلو لك أن تعتقد».

ـ ما معنى هذا؟

قالت شاعرة بالإنهاك والغثيان: «آه، ولماذا إزعاج النفس بالتجاهل في هذه المرحلة؟ إننا نحن الاثنين نعلم أنك لم تتزوجني إلا لأنني أذكرك بجوليا».

بدا عليه الذهول عدة ثوانٍ. أخذ يحدق إليها وعدم التصديق يسود ملامحه، ثم سألها بصوت مرتفع:

ـ هل أنت مجنونة؟

صدمتها لهجته، فقالت بتردد: «ولماذا أكون مجنونة؟ ماذا تعني؟»

فأخذ يضحك بخشونة وقد بدا لمعان غريب في عينيه. ثم قال بتسلية صادقة: «أهذا ما تعتقدينه؟ أتعنين أنك لم تعلمي؟»

أخذت كلماته الصارخة ترن في أنحاء الغرفة مسببة لها الاضطراب. فرددت: «ماذا تعني؟ وماذا كان عليّ أن أعلمه؟»

أصبح ضحكه تهكماً الآن، فقال بمرارة ساخرة: «الأمر بالعكس فأنا لم أتزوج جوليا إلا لأنها كانت تذكرني بك».

مضت لحظة أحست فيها بالدنيا تدور حولها وتشوشت أفكارها، وأخيراً همست: «لا أفهم.. لماذا..؟»

ـ لأنه كان عليّ أن أقوم بشيء ما.. كنت في الرابعة عشر، فجعلتني مجنوناً بك. أصبحت هاجسي.. أنا الرجل ذو الثامنة والعشرين! أتعلمين ما كان سيفعله رجال القرية لو أنهم علموا ما كنت أفكر فيه بالنسبة إليك؟

استدار مبتعداً عنها وسار إلى النافذة وقال بصوت مليء بازدراء النفس: «احتقرت نفسي، ولكنني لم أستطع تغيير مشاعري. أخذت أحدث نفسي عن صغر سنك.. مكرراً هذا على الدوام كلما كنت بجانبك... ولكنني لم أستطع أن أتصورك فتاة صغيرة، فأنت لم تكوني كذلك».

سكت لحظة ثم تابع يقول: «كدت أقنع نفسي بأنني طالما لم ألمسك أو أظهر لك مشاعري فالأمر لا بأس به. ولكنني كنت أعلم أنني مخطئ، كان يجب أن أضربك على قفاك وأقول لك أن تذهبي وتجربي إغراءك على أحد غلمان القرية بدلاً مني. أدركت أنك تميلين إليّ وكان هذا خطراً، ولكنني لم أستطع القيام بذلك، وبقيت أفكر.. سأفعل ذلك غداً.. سأراها مرة واحدة فقط وسأفعل ذلك غداً».

ونظر إلى الوادي دون أن يراه: «اعتدت الوقوف عند هذه النافذة أنتظر قدومك فوق الجسر، كنت أعلم أنني ألعب بالنار وأن هذه حماقة. الكثيرين لمّحوا لي بأنني قد أجد نفسي في مشكلة إذا لم أكن حذراً، ولكنني كنت أضحك وأقول إنك مجرد طفلة. ظننت أن بإمكاني السيطرة على الوضع، ولكنني ذات يوم على التل، كدت أموت من الخوف إذ كدت أفقد سيطرتي على نفسي، وهكذا أدركت أن عليّ أن أهرب منك».

كان ما يزال يحدق من خلال النافذة، وكانت فران تنظر إليه والفرح يتغلغل في كيانها. سألته بحذر دون أن تكشف عن مشاعرها: «أين تعرفت إلى جوليا؟»

ـ في لندن حال وصولي إلى هناك. لم أكد أصدق ذلك في البداية، كان شبهها بك غريباً حتى إنها كان لها بعض تصرفاتك.. طريقتك في إدارة عينيك وأنت تنظرين إلى أعلى، فتبدو مثلك تماماً. ولكنها لم تكن ممنوعة عليّ، كانت امرأة وكان مسموحاً لي لمسها.. وحبها.

مال برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه مطلقاً آهة طويلة:

ـ يا إلهي، ليس لديك فكرة عن الارتياح الذي شعرت به حينذاك. شعرت بأنني عدت طبيعياً.. لم يكن عليّ احتزان مشاعري داخلي شاعراً بالخزي. ظننتها استجابة لدعائي إلى الله.. مكافأة لي على عدم استسلامي للغواية. وهكذا تزوجتها حال تمكني من ذلك.

سألته فران بهدوء ممسكة أنفاسها، راجية أن لا يسكت:

ـ لماذا فشل الزواج؟

التفت إليها فجأة ونظر إليها متفحصاً ثم قال بعدم اكتراث:

ـ وما أهمية ذلك الآن؟

واتكأ بكتفه على الجدار، وأخيراً قال: «عَرَفَتْ بقصتك، لا تسأليني كيف... لا أستطيع إخبارك، ربما أتحدث أثناء نومي أو ربما هو شيء تشعر به النساء. ظننت في البداية أنني أحبها، ولكنني كنت دوماً أتطلع إلى شيء لم يكن موجوداً. حاولت أن أخفيه عنها فتظاهرنا نحن الاثنين أن لا شيء غير عادي... بقينا في لندن أكثر من سنة لأنني كنت خائفاً من إحضارها إلى البيت. ولكنها أرادت المجيء وهكذا جئنا أخيراً، وبعد أسبوع من وصولنا عادت من القرية ذات يوم فعلمت أنها رأتك. لم تخبرني ولم أسألها، لا أظن أياً منا ذكر اسمك حتى رأيتك تلك الليلة في المسرح».

ساد صمت طويل، ثم قال: «أخبرتني حينذاك أنها لن تستطيع الاستمرار في هذا الزواج، كانت تحبني وكان هذا يدمرها. أقنعتها

بأن تستمر فترة ونرى إن كان بإمكاننا أن نخرج بنتيجة... ولكن دون فائدة.. كنت أنت دوماً هناك... بيننا، رغم كل محاولاتي إخفاء ذلك. أحببتها نوعاً ما، ولكنها كانت تعلم أن ذلك ليس إلا جزءاً من شعوري نحوك. وفي اليوم الذي تركتني فيه، أخبرتني أنها في كل مرة أخذتها بين ذراعيّ، كانت تعلم أنني كنت أتصورك أنت بين ذراعي، ولم يكن لديّ ما أقوله فقد كان هذا صحيحاً».

بدرت حركة صغيرة لا إرادية من فران، فاتجهت عيناه إليها دون اهتمام، وفي صوت هادئ خالٍ من أي تعبير قال: «كتبت إليّ قائلة إنها ترجو أن أعثر عليك مرة أخرى... لا أظن أحداً في التاريخ شعر بنفسه حقيراً مثلي عندما قرأت ذلك. إنها ستبقى في ضميري حتى الموت، وكل هذا في سبيل ماذا؟ وهم.. شيء بنيته في خيالي.. صورة خلقتها لنفسي من فتاة صغيرة ساحرة متألقة رأيتها تكبر أمامي. ظننت أن المرأة ستكون تلك الطفلة التي عرفتها وقد كبرت، لكن خداع النفس لم يضع في الحسبان أن الناس يتغيرون».

قالت فران بصوت مبحوح وعيناها تغرورقان بالدموع:

ـ ليس دائماً يا غرانت.

التفت إليها ببطء، فترددت مستجمعة شجاعتها في حالة صده لها: «غرانت، لماذا تظنني ألقيت نفسي عليك منذ تلك السنوات الطويلة؟»

فقال بعدم اكتراث: «من باب التجربة كما أظن. فهذا هو السبب العادي في تلك السن. كنت صغيرة جداً على معرفة ما تقومين به حقاً أو تأثيرك عليّ».

فقالت بصوت واضح: «بل كنت أعرف».

نظر إليها مقطباً جبينه بسرعة، وإذا بالدموع التي لم تعد تستطيع السيطرة عليها تنهمر على وجنتيها وقابلت تحديقه الذي تألق فجأة

بابتسامة واهنة: «كنت على صواب في هربك، ولكن، يا إلهي... كان عليك أن تنتظرني يا غرانت... كان عليك أن تنتظرني».

تهدج صوتها عند الكلمات الأخيرة وأخذت تبكي الآن بشكل واضح، ولكنه لم يتحرك نحوها. ضاقت عيناه وقد تجمد بشكل غير طبيعي.

ـ ماذا تقولين؟

ـ إنني أحبك طبعاً. أحببتك على الدوام منذ وقت لا أتذكره، لم يكن في حياتي رجل قط غيرك... لم أرغب في رجل قط غيرك.

فسألها بخشونة: «ولماذا كانت تلك الشهور الأخيرة بهذا الشكل إذن؟»

أخذت تشهق باكية وهي تمد يديها إليه: «لم يعد هذا مهماً الآن. ضمّني يا غرانت، ضع ذراعيك حولي وضمّني».

شعرت بهما حولها فتشبثت به ضاغطة بأصابعها على ظهره بتشنج. بقيا مدة طويلة دون حراك، ثم أخذ يمرّ بيده على كتفيها مواسياً، فرفعت رأسها وهي تقول بضحكة مرتجفة:

ـ لقد بللت قميصك بالدموع.

ـ لا أظن لديك سوى مناديل الورق عديمة الفائدة تلك.

ومد يده إلى جيبه يخرج منديله يناولها إياه.

أخذته منه وهي تتمتم شاكرة، وأخذت تمسح وجهها وعينيها وهو ينظر إليها، ثم قال بثبات: «والآن ما سبب كل هذا يا فران؟»

هزت رأسها: «بالنسبة إلى رجل ذكي، أنت أحمق. ألا يمكنك أن ترى أن نفس الشيء عاد يتكرر مرة أخرى؟ ظننتك ما زلت تحب جوليا وأنني مجرد بديلة لها، وكان هذا بالنسبة إليّ أسوأ. عندما جئنا إلى هنا كانت هي حولي. عشت مع الستائر والسجادات التي اختارتها بنفسها، جلست على الكراسي التي جلست عليها، نمت معك في

نفس السرير الذي نمت أنت فيه معها. لم أستطع التخلص منها رغم كل محاولاتي... اشتريت فراشاً جديداً وأبدلت كلة السرير ولكن ذلك لم يحدث أيّ فرق... كانت هنا.. أوشكت أحياناً على رؤيتها ثم.. ثم غطى الجليد مشاعري».

عاد يحتضنها وهو يتأوه: «فران.. فران.. أما كان عليك أن تخبريني؟ هل كان علينا أن نعاني كل تلك التعاسة لأجل كلمات قليلة؟»

ـ لم أجرؤ على إخبارك، كنت أخاف حتى من ذكر اسمها. كان وجهك يتغير وتسكتني في كل مرة أتحدث عنها، وكأنها شيء مقدس. وعندما أخذت الصحف تتحدث عن تشابهنا، كانت جوليا هي التي انزعجت أنت لأجلها.

ـ بل كان ضميري، ما كان عليّ قط أن أتزوجها ولكنني فعلت فكنت أحاول حمايتها من ازدياد آلامها، شعرت بأن لها الحق في أن تتوقع مني هذا على الأقل.

أومأت فران وهي ما زالت تشعر بلهيب ضئيل من الغيرة يشتعل في داخلها، فقال غرانت: «ما بك؟»

ـ لا شيء في الحقيقة.

وانفلتت من بين ذراعيه بخفة وهي تقول: «أتوقع أن يشفيني الزمن، ولكنني لم أسمع في حياتي كلمة انتقاد واحدة لها، دوماً أشعر أن الناس يقارنون بيننا ويعتبرونني في الدرجة الثانية. هل كانت كاملة الأوصاف إلى هذا الحد يا غرانت؟»

سكت طويلاً ثم قال ببطء: «إذا شئت الحقيقة، الجواب هو نعم. كانت دوماً هادئة الطبع، دوماً تراعي الآخرين، رقيقة مع الجميع وليس معي فقط. وكان هذا حقيقياً وليس ظاهراً فقط، فهذه كانت طبيعتها بقدر ما كانت دقيقة أنيقة حسنة المظهر بطبيعتها، سواء

كنا خارجين أم لا».

تغير صوته وأصبح نائياً في ذكرياته البعيدة: «تمنيت أن تفقد أعصابها معي ولو مرة واحدة أو تبدأ جدالاً، أو تترك ملابسها متناثرة على أرض الغرفة. حتى رؤيتها بلطخة على أنفها كان يشعرني بالارتياح البالغ. لا أظنني تفوهت بشتيمة قط أمامها رغم أنها ما كانت لتقول شيئاً لو إنني فعلت، عالماً بأنني لو تعمدت القيام بأي شيء قد يؤذي مشاعرها سيكون أشبه بصفع طفل بريء واثق بك. ليس هناك قيد مثل الطيبة والصلاح المطلقين. ذلك يسلب كل الأسلحة التي يستعملها الشخص عادة. ذلك يقيده، يحبسه في قفص، مطلوب منه الطاعة والتكيف في الوقت الذي يريد فيه أن ينفجر لأنه غاضب أو متضايق ويريد التنفيس عن مشاعره.. إنه همود واختناق».

وسكت لحظة يحدق بعيداً: يا إلهي، كان الأمر أحياناً يبدو مملاً إلى حد أشعر فيه أنني أريد أن أحطم شيئاً.

ومرّ بيده على ظهرها ببطء وقال متأملاً: «اعتدت أن أجلس هناك وأفكر فيك، بذراعيك وساقيك المغطاة بالخدوش وشعرك المتطاير في كل مكان. ولكن هذا كان يجعل الأمور أسوأ».

تحركت بين ذراعيه فضحك فجأة ونظر إليها مرة أخرى:

ـ لن تكوني قط كاملة يا فران، ولكنني لا أريد الكمال. الحياة معه صعبة جداً.

كانت صامتة بينما عقلها يستوعب كلماته ويحطم صورة جوليا التي خلقتها في عقلها، وأخيراً سألته مترددة:

ـ لماذا لم تنجبا أولاداً؟

ـ لا أظنها أرادتهم حقاً. من الغريب أنها لم تكن تحب الأمومة كثيراً كما أنها لم تكن على علاقة حميمة بوالديها، ربما بسبب

الطريقة التي نشأت بها. فقد كانت وحيدة والديها وقد نشأت على يدي مربية، ثم ذهبت إلى مدرسة داخلية. أحبت النظام في كل شيء، وتبعاً لما كانت تقوله: الأطفال حيوانات صغيرة صاخبة عديمة النظام. وهم يتقيأون على الكنف ويكثرون من البكاء والشكوى في الأوقات غير الملائمة على الإطلاق.

فقالت فران: «نعم... ولكن...».

تلاشى صوتها وهي تدرك أن من المستحيل أن تتصور أصابع صغيرة لزجة تتشبث بشعر جوليا المنظم الأنيق. ثم قالت فجأة:

ـ ألم يكن لديك مانع؟

هز رأسه نفياً، وبعد تردد قصير قال: «أما كنت ستتركها أبداً؟»

ـ كلا. كانت تحبني وكان هذا أقوى رباط بيننا على الإطلاق. كانت تعتقد في البداية أنني أحبها كذلك، فباحت لي بحبها. وعندما أدركت غلطتي أقسمت بأن لا أكشف مشاعري لامرأة كما فعلت معي. إن استجلاب شفقة الآخرين شيء مذلّ تماماً، وهو سلاح قوي لا ينبغي المجازفة بإعطائه للأيدي غير المناسبة.

ـ هل هذا هو السبب في أنك لم تقل لي قط إنك تحبني؟

أمسك بوجهها بين راحتيه: «أنت أيضاً لم تقولي لي ذلك، فأنا لم أعلم قط لماذا تزوجتني».

ـ هذا صحيح، كنت أيضاً أخاف من كشف مشاعري بالكلمات، ولكنني ظننت أنني أريتك ذلك بالأفعال.

فقال بخشونة: «إنك محمومة المشاعر يا فران، وقد لا يكون هذا لأجلي فقط».

احمر وجهها لحظة ثم ابتسمت: «ولكن هذا ما كان، دوماً كان لك نفس التأثير عليّ، وأنت الوحيد الذي فكرت في إغوائه على كل حال».

رفع حاجبيه مستفهماً، ثم هتف فجأة: «يا إلهي، لم أظن أن نواياك كانت جادة إلى هذا الحد.. وإلا لأسرعت بالهرب».

تلاشى الهزل من ملامحه ثم نظر إليها بإمعان: «وماذا عن الآن يا فران؟ هل ما زال لي نفس التأثير عليك؟»

عادت تبتسم: «عليك أن ترى بنفسك».

ففتح ذراعيه يحتويها بينهما، وإذ كانت أمتعتها فوق السرير قال: «يمكننا أن نذهب إلى غرفة أخرى يا فران».

فهزت رأسها... إن عليها أن تنتصر هنا وإلا فسيبقى خيال جوليا هنا على الدوام، ربما يغيب أحياناً ولكنه لن يتلاشى تماماً.

وفي لحظة، عاد يتملكها البرود القديم، ولكنه جذبها يعيدها إلى أحضانه قائلاً: «أحبك أنت وأنت فقط، فلا تفكري في أي شيء آخر».

إنها المرة الأولى التي يقول فيها لها هذه الكلمات مباشرة. وفجأة إذا بالسحر يعود فيشعلها فدست وجهها في كتفه وهي تضحك بسعادة.

نظر إليها وهو ينحني يقبل وجنتها: «بدأت أظن أنني لن أسمع ضحكتك هذه مرة أخرى».

ـ وأنا ظننت أنني لن أشعر أبداً بالرغبة في الضحك مرة أخرى.

ـ إنك حلم كل رجل.

التفتت إليه بدهشة: أحقاً؟

ـ ألا تعلمين هذا؟

ـ وكيف أعلم إذا لم تخبرني؟ لم أعرف غيرك.

لوى شفتيه قائلاً: «كيف تعلمين حقاً؟ ولكنني أؤكد لك تبعاً لخبرتي أنك فريدة بنوعك».

فقالت: «إنني أحبك. وطالما قلت لك ذلك من قبل أثناء

نومك».

فقال بجفاء: «كان لدينا نفس المشكلة».

ـ نعم، وكل مشاكلنا كان يمكن حلها بكلمة من ثلاثة أحرف.

فقال ضاحكاً: «أنت لا تحسنين العد. أتذكر أنني أخبرتك مرة أنك أمية تقريباً».

ردت بحدة: «وهل لحرف واحد أهمية؟»

واستلقت ناعسة راضية إلى أن نبهتها حمائم الغابة التي تجمعت فوق النافذة لافتة نظرها إلى شمس الأصيل المتدفقة إلى الغرفة. رفعت ذراعه تنظر إلى ساعة معصمه: «كم الوقت؟ لا أستطيع الرؤية».

ـ الخامسة والثلث.

ونظر هازلاً إلى نظرة الذعر في عينيها وهي تحاول الجلوس.

ـ فرانت، دعني أذهب، رالف السائق سيقرع الباب الآن ليقول إنه راحل.

فقال بكسل: «فليكن، فنحن لن نفتح الباب».

ـ ولكنه سيتساءل عن السبب، إن سيارتنا أمام الباب.

ـ هذا لا يهمني، ليس من شأنه إذا أردت أن أنام مع زوجتي عند العصر. لولا حاجتي إلى النزول لإطعام الكلاب لما كان هناك سبب يمنعنا من البقاء هنا حتى الصباح.

ـ بل هناك سبب. إذا جاءنا الآن أحد، فسيفشو الأمر في أنحاء القرية، وأنا لا أريد رؤية ابتساماتهم المتكلفة في كل مرة أدخل فيها المتجر.

ونظرت حولها إلى الفوضى البادية في الغرفة: «إذهب والبس ثيابك ريثما أنظم الغرفة».

أجاب بين الهزل والجد: «ارتدي أنت شيئاً قبل أن أقول لكل

قادم أن يذهب إلى جهنم».

دخلت إلى الحمام، وعندما عادت كان غرانت مرتدياً ثيابه وهو يعيد الحقائب إلى الخزانة. وشعرت بقلبها ينقبض، بعد نصف ساعة كان المفروض أن تكون في طريقها إلى لندن.

سألته بشبه خوف: «غرانت، هل كنت تعلم بنيتي في الرحيل هذا النهار؟ أم أن عودتك كانت مصادفة؟»

بدا الجد على ملامحه: «كنت واثقاً من ذلك، كان خزان سيارتك مملوءاً إلى ثلثيه. ولكنك ملأته أمس إلى الحافة ولم يكن بك حاجة لذلك إلا إذا كنت ستذهبين في رحلة طويلة. لقد أخبرتك إنني ذاهب إلى «وورستر» لكي تظني أن الفرصة سنحت لك للرحيل فأحضر وأمسك بك. لم أكن أعلم حقاً ما سأستفيد من ذلك ما عدا أنني لم أشأ أن أعود يوماً فأجدك قد رحلت.

كانت لهجته متصلبة جعلت عينيها تفيضان بالدمع فجأة. فقالت: «آه.. يا غرانت.. أنا آسفة..».

وسكتت وقد غلبتها مشاعرها.

سألها بابتسامة ملتوية: «لماذا؟ وهل ذنبك أكبر من ذنبي؟»

هزت رأسها تمسح دموعها بقفا يدها، فجذبها إليه وانحنى يقبل جبينها: «لا تبكي لأنه ليس لدي منديل لأعطيك هذه المرة».

ضحكت كما كان قصده، وابتدأت تعيد الملابس إلى أماكنها. نظرت من النافذة فرأت السائق قادماً، فالتفتت إلى غرانت.

ـ ها هوذا رالف قد جاء كما أخبرتك.

ـ سأذهب لملاقاته. ولكي أريح ذهنك سأضع السيارتين في الكاراج وأقفل جميع الأبواب، فإذا جاء أي شخص فنحن في الخارج.

ضحكت بمزيج من الإثارة والارتباك. ونزل هو، وبعد لحظة

ارتفع صوتيهما من تحت النافذة، صوت رالف البطيء المدمدم، وأجوبة غرانت الحازمة. كان غرانت يحاول استعجاله بينما هذا يصر على رواية أحداث النهار. فتحت النافذة قليلاً فسمعت بوضوح صوت غرانت يقول بصبر نافد: «سأتحدث معك عن هذا عند الصباح يا رالف. إنني خارج هذا المساء وليس لدي وقت الآن».

حتى رالف لم يستطع تجاهل هذا الطرد الواضح، وتملكها الرجاء في أن لا يسمع صوت وضع غرانت للسيارتين في الكاراج أثناء خروجه من البوابة.

استغرق إعادة الأشياء إلى مواضعها وقتاً أطول مما استغرقه إخراجها منها. وكانت تغلق آخر درج متنهدة عندما فتح غرانت الباب بكتفه ودخل.

رأته من خلال عينيها الغائمتين بالدمع يتقدم نحوها ويأخذها بين أحضانه وهو يقول لها بهدوء: «يمكنني العيش من دونك فقد فعلت هذا من قبل، وما كان العالم سينتهي لو أنك كنت هجرتني اليوم، ولكن الحياة لن تكون كاملة، ثمة فرق بين السعادة ومجرد العيش».

قالت والغصة في حلقها: «أعرف هذا، حاولت أن أكون واقعية إزاء شعوري. حدثت نفسي بأنني لو كنت ولدت في وقت ومكان مختلفين لما عرفتك قط. ولكن هذا لم ينفع، لم أستطع أن أحتمل استمرار العيش معك كما كنا، ولكنني أيضاً لم أعرف كيف سأعيش من دونك».

نهدج صوتها، فقال: «كفى، فكل شيء انتهى... ولا تفكري بعد الآن بالحماقة التي كنا سنقدم عليها وإلا فالخوف سيقتلنا».

قالت باكتئاب:

ـ أتمنى أن لا تعود السيدة ماتيوس، لولا غيابها لما تمكنا من الاحتفال بحبنا الآن.

فقال بابتسامة متألقة: «وهكذا سنجتهد في إمتاع أنفسنا الآن. وعلى كل حال فقد اقترب أوان تقاعدها».

أزعجها ضحكه فقالت: «لا بأس بهذا بالنسبة إليك، فهي لا تجلس معك تنتقدك طوال النهار».

وخطرت لها فكرة مفاجئة فنظرت إليه وقد احمر وجهها: «يا إلهي، أظنها تعلم كل شيء».

وعندما أومأ برأسه مؤكداً لها هذا، أغمضت عينيها بيأس:

ـ لا عجب في عدائها لي.

فقال: «هنالك علاج بسيط لذلك... أوقفي استعمال حبوب منع الحمل اللعينة تلك فتصبح رضية الخلق معك منذ اللحظة التي تخبرينها فيها بأنك حامل».

جمدت لحظة لا تتكلم، فسألها غرانت بحدة: «ما بك؟»

فقالت بابتسامة بطيئة: «لقد أوقفتها فعلاً».

وإذ رأت البسمة تتسع في وجهه، قالت: «ولكنك لم تمانع بعدم الإنجاب من جوليا، كنت أظنك لا تريد أولاداً أنت أيضاً».

ـ بل كنت أريدهم... دوماً كنت أريد أولاداً، ولكنني أردتهم لنا أنا وأنت يا فران.

* * *